بالإسلام أعزنا الله !

تأليف

د. محمد فرمان الندوي

(مدير تحرير مجلة "البعث الإسلامي"

ندوة العلماء، لكناؤ)

الناشر

المكتبة الندوية، ندوة العلماء، لكناؤ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ المصادف ٢٠٢٤م

اسم الكتاب	:	بالإسلام أعزنا الله!
المؤلف	:	د. محمد فرمان الندوي
عدد الصفحات	:	١٤٨
العدد	:	١١٠٠
سعر النسخة	:	120/-
اهتم بالطبع	:	عبد الكريم الندوي +91-9452125145 / aksmatloob1986@gmail.com
الناشر	:	المكتبة الندوية، ندوة العلماء، لكناؤ
الهاتف	:	+91-522-0000000

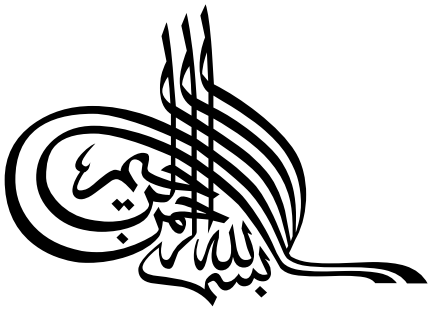
بسم الله الرحمن الرحيم

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" [البقرة:٢٠٨].

المقدمة

بقلم سعادة أستاذنا الجليل الدكتور سعيد الأعظمي الندوي أطال الله بقاءه
رئيس تحرير مجلة "البعث الإسلامي"
ومدير جامعة ندوة العلماء، لكناؤ (الهند)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي سيد الأنبياء وإمام المرسلين محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فالإسلام دين كامل شامل، ونظام عادل لا يتجزأ ولا يتوزع، وإنه وحدة كاملة، لا تقبل أي تقسيم، ولا يمكن أن يكون المرء مسلمًا، ما لم يكن متمسكًا بجميع أجزاء هذه الوحدة، وملتزمًا بكاملها، فإذا كانت الديانات والأنظمة الوضعية تقبل من أصحابها الأرباع والأنصاف، فإن الإسلام يدعو إلى الدخول فيه مائةً في المائة، كما أمر الله سبحانه بذلك في قوله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" [سورة البقرة، الآية: ٢٠٨].

جاء الإسلام وبُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمةً للعالمين، فأخذ بيد الإنسانية كلها على الإطلاق بما فيها أهل

الظلمات وغيرهم، فحدب عليهم، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن الوثنية الجارفة لجميع القيم الخلقية والمثل العليا إلى التوحيد الخالص، وربط مصير الإنسان بشريعة الله تعالى، ووصله بعتبة الرب تبارك وتعالى وعبادته التي إذا اختارها العبد أكرمه المعبود بالسعادة والفوز، وبالنجاة من عبودية الإنسان، وجور الأديان، والركوع إمام الأوثان، ورفع مكانته إلى أعلى ما يتصور في الدنيا، وأكرم ما يُثاب في الآخرة.

فالإسلام وحده الذي عاد بالإنسان إلى طبيعته، وعين مقياسًا واحدًا للعز والذل وللسعادة والشقاء، والشرف والضعة، وهو مقياس التقوى، والذي يميز من لا يتقي ممن يتقي، ويرفع مكانته ويربطه بالملكوت الدائم، ومن ثم تتحقق له السعادة بمعناها الكامل، ويعيش في الدنيا وهو ينظر إلى الآخرة، ويقوي رابطته مع ربه تبارك وتعالي، ويعرف واجبه نحوه ونحو إخوانه، ويعتبر نفسه عضوًا كريمًا من أسرة الأمة التي اختارها الله سبحانه للقيام بمهمة الدعوة إلى عبادة الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذلك يؤدي المسلمون دور الأمة الإسلامية، ويتحاشون من كل ما يعكر عليهم صفو هذا المفهوم أو يبعدهم عن جادة التعاون والتضامن.

ونظرًا إلى هذه المعاني والمدلولات الدينية قام أخونا العزيز الأستاذ الدكتور محمد فرمان الندوي (مدير تحرير مجلة البعث الإسلامي، ندوة العلماء وأستاذ كلية اللغة العربية وآدابها بدار

العلوم لندوة العلماء، لكناؤ) بكتابة مقالات وكتابات عن الإسلام ومدى تأثيره في الحياة والمجتمع، والأستاذ محمد فرمان الندوي بدأ مشواره الكتابي من مجلة البعث الإسلامي قبل أكثر من خمس وعشرين سنة، فأصبح اليوم كاتبًا قديرًا، وصحافيًا بارعًا، وأستاذاً ضليعًا، بارك الله في جهوده وأعماله، ونفع به الأمة.

كان في بداية المرحلة ينقل مقالات العلماء والكتاب الإسلاميين إلى العربية، وقد بلغت عدد كتبه المترجمة فقط إلى أكثر من عشرة كتب، ما بين صغير وكبير. ومن أهم هذه الترجمات ترجمة أربعة مؤلفات للإمام الندوي، وعدد من مؤلفات الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي أمثال الهداية القرآنية سفينة نجاة للإنسانية، وجغرافية جزيرة العرب: تاريخيًا وعلميًا وثقافيًا، والحج ومشاعره وآدابه، والمجتمع الإسلامي: حدوده وآدابه في ضوء سورة الحجرات، والصراع بين الحق والباطل في ضوء سورة الكهف وغيرها من الكتب، فضلا عن التعليقات على عدد من الكتب، والمؤلفات التي قام بإعدادها بنفسه في ضوء المراجع والمصادر.

وقد وفقه الله تعالى لكتابة سلسلة من المقالات في مجلة البعث الإسلامي بعنوان: "إلى الإسلام من جديد"، واستمرت هذه السلسلة إلى خمس سنوات، ويكتب الآن بكل استمرارية عمود: "صور وأوضاع" في مجلة البعث الإسلامي، الذي بدأ صديقنا الأعز الأستاذ السيد محمد الحسني رحمه الله تعالى منشيء مجلة البعث

الإسلامي، وواصل هذا العمود بإيعاز من الإمام أبي الحسن علي الحسني الندوي، فضيلة الأستاذ السيد واضح رشيد الحسني الندوي رحمه الله، وكان كاتبًا قديرًا، وصحافيًا بارعًا، ومطلعا على الأوضاع المعاصرة. وبعد وفاته بدأ الأخ العزيز محمد فرمان الندوي كتابة هذا العمود، ولا يزال يتطورأسلوبه من حسن إلى أحسن، ومن جيد إلى أجود. وفقه الله تعالى لكثير من الإنجازات العلمية والدينية، وتقبل جهوده بقبول حسن.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

كتبها بيمينه

سعيد الأعظمي الندوي

رئيس تحرير مجلة "البعث الإسلامي"

ندوة العلماء، لكناؤ (الهند)

١٤٤٦/١/١٥هـ

٢٠٢٤/٧/٢٣م

تقديم الكتاب

بقلم فضيلة الشيخ الدكتور غريب جمعة

جمهورية مصر العربية

الكتاب الذي هو بين أيدينا ثمرة طيبة لقلم المؤلف، فقد نشره فى صورة مقالات قصيرة على صفحات مجلة "البعث الإسلامي" الغراء، ثم بدا له أن يجمعها في كتاب ليعم نفعها وتنتشر فائدتها، فأعاد قراءتها ومراجعتها وترتيبها لتخرج فى صورة هذا الكتاب الذي يطل بوجهه الجميل على القراء، لأنه دعوة صريحة مخلصة للعودة إلى الإسلام إن أردنا العزة والسعادة فى الدنيا والفوز برضوان الله وجنته فى الآخرة.

وكانت فكرته جاءت من قوله تعالى:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" [سورة البقرة، الآية: ٢٠٨].

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى حظيرة الإسلام كله على أن يكون المؤمنون مأمورين بجميع فروع وأحكام الإسلام، أما إذا آمنوا ببعض الأحكام ففعلوها كالصلاة والصيام مثلاً، ولم يعملوا ببعض الأحكام كالزكاة والصدقة مثلاً والحكم بكتاب الله

وإقامة حدوده ومنع الخمر والربا والفواحش ما ظهر منها وما بطن وما إلى ذلك مما نراه الآن، فتكون هذه الآية من باب الأخبار بالمغيبات بالنسبة للمسلمين في هذه الأيام، وما دمنا على هذه الحال فنحن الظالمون الذين نتبع خطوات الشيطان ونقلده ونسمع له، مع أنه العدو اللدود الظاهر في العداوة، والله يقول لنا: "ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين"[١].

أما مؤلف الكتاب فهو صحفي لامع، وخطيب مفوَّه، وأستاذ فاضل، وعالم جليل تتميز كتابته بالوعي وقراءة واقع المسلمين والحديث عن المشكلات التى يواجهونها والتحديات القائمة أمام دينهم، وما يجب عليهم نحو دينهم ولغتهم وأوطانهم، وغير ذلك من الموضوعات القيمة التي يتناولها، كل ذلك بأسلوب سلس تتجلى فيه عفة الكلمة وقوة الحجة وصدق اللهجة وتدفق العاطفة والإخلاص لله، ولا نزكيه على الله.

فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ووفقه إلى المزيد من العطاء.

غريب جمعة

جمهورية مصر العربية

١٤٤٩/٣/٢٥هـ

٢٠٢٤/٩/٢٩م

---

[١] التفسير الواضح، المجلد الأول، الجزء الثاني، صفحة: ٦١، طبعة الأزهر الشريف.

كلمة حب وتقدير

الدكتور أشرف شعبان أبو أحمد

جمهورية مصر العربية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فبعد اطلاعي على سيرة الأستاذ الدكتور محمد فرمان الندوي وحياته المهنية، وما بدا لي أنه أمضى ما مر منها بين التأليف والتراجم أو التعريب والتحقيق في الكتب، كما نشر له العديد من المقالات والأبحاث، وشارك في العديد من الندوات والمؤتمرات الإقليمية والعالمية، غير عمله بالخطابة، فضلاً عن كونه أستاذاً جامعيًا نال درجتي الماجستير والدكتوراه في اللغة العربية والأدب العربي، فلا يسعني إلا أن أقول له: بسم الله ما شاء الله، بارك الله فيكم، وفي صحتكم ووقتكم، وزادكم من علمه، فلديكم من المؤهلات والخبرات ما يغنيكم عن أي تزكية من أي فرد كائن من كان، وإنتاجكم العلمي غزير، نفع الله به المسلمين وجزاكم عنه كل خير، ومازلتم في عنفوان شبابكم، وما زال أمامكم الكثير للاستزادة من بحر العلم الواسع، وللعطاء والبذل،

فمنطقة الشرق الأقصى تحتاج للكثير من أمثالكم في كل بلدانها، والتنسيق فيما بينكم، للعودة بها إلى ما كانت عليه، كما مازال الفضاء العلمي العالمي يحتاج لدراسات إسلامية تواكب كل عصر، وبلغة كل بلد، وبمفهوم كل جيل، وبمنطق كل فئة أو طبقة، ومازالت شعوبنا الإسلامية تحتاج للمزيد من علماء الدين المخلصين له العاملين به، ليلتفوا حولهم ما اطمأنوا إليهم ووثقوا في أقوالهم وأفعالهم.

أقدِّر جميع ما قمتم به، وأقل ما يمكنني تقديمه لكم هو تقديري وامتناني لما تفعلونه، فكلمات الشكر الجزيلة لا تكفي للثناء على نبع عطائكم الذي لم ولن ينضب بإذن الله، ونسأل الله لكم الثبات على ما أنتم عليه، وأن يحفظكم من كل سوء ويحميكم من شر أعدائكم وأعداء الدين، وألهمكم الله شكر نعمه والعمل الصالح بما يرضاه وأدخلكم برحمته في عباده الصالحين، قال تعالى: "رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ" [سورة النمل، الآية: ١٩].

أرجو أن هذا الكتاب يؤدي دوراً مهماً في إصلاح المجتمع، والله ولي التوفيق.

د. أشرف شعبان

جمهورية مصر العربية

١٥ يوليو ٢٠٢٤م يوم الاثنين

كلمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي سيد الأنبياء والمرسلين محمد وعلي آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فهذه الكتابات الدينية التي نسعد الآن بتقديمها أمام قرائنا الكرام هي سلسلة متواضعة، واصلتها خلال خمس سنوات في مجلة البعث الإسلامي، ولم يكن وراء ذلك إلا الكشف عن محاسن الإسلام ومزاياه التي تميزها عن الديانات الأخرى، فالإسلام هو ديننا وشريعتنا، ومنهج حياتنا، ودستور مجتمعاتنا، لا نستطيع أن نستغني عنها في أي مرحلة من المراحل، وهذه حقيقة ناصعة أن الإسلام هو الدين، أما بقية الديانات فإنها أصول وتقاليد، وطقوس واحتفالات، لا يمكن أن تطلق عليها كلمة الدين.

ظل الإسلام دين الأولين والآخرين منذ سيدنا آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فهو عبارة عن عقائد ودعائم يقوم عليها حياة الإنسان، فقد كان جميع الأنبياء والمرسلين متحدين ومتفقين في الأصول، ومختلفين في الفروع، وإلى هذا المعنى أشار الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: "شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ" [سورة الشورى، الآية: ١٣] وقال صلى الله عليه وسلم: نحن معاشر الأنبياء إخوة علات، ديننا واحد[١] وقد أشار إليه الله تعالى في سورة الحج قائلاً: "هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا" [سورة الحج، الآية: ٧٨]، فالانتماء إلى الإسلام شرف وعظمة، لا يعادله شرف آخر، لأن صاحب الإسلام يكون على نور من ربه، أما الكافر فإنه يتسكع في ظلمات بعضها فوق بعض. وقد قال الشاعر العربي وهو يمثل عن هذه العاطفة النبيلة:

أبي الإسلام لا أب لي سواه
إذا افتخروا بقيس أو تميم

وقد ظهرت أمثال هذه الروائع حينما سافر سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى فلسطين، لاستلام مفاتيح بيت المقدس، فأشار عليه بعض زملائه للتظاهر ببعض مظاهر الخلافة، فقال مخاطبًا إياهم: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة بدون الإسلام أذلنا الله[٢].

وقد أسميت الكتاب باسم: بالإسلام أعزنا الله، وهو اسم يشير إلى مدلوله ومعناه، ويبين فحوى الكتاب ومغزاه، وهو الرابط الذي يربط الكتابات كلها بسلك واحد، وقد استفدت في شرح هذه المفاهيم الإسلامية من المراجع العلمية والأدبية الكثيرة،

---

[١] صحيح البخاري: ٣٤٤٢.

[٢] المستدرك على الصحيحين عن طارق بن شهاب.

منها "الإسلام أثره على الحضارة وفضله على الإنسانية" للإمام أبي الحسن علي الحسني الندوي، وهو كتاب يحتوي على ذكر عشر ميزات للإسلام، وفضله على جميع الديانات.

وإن أنس فلن أنس فضل أستاذنا الجليل سعادة الدكتور سعيد الأعظمي الندوي أطال الله بقاءه (رئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي، ومدير دار العلوم لندوة العلماء) على تكرمه بتقديم هذا الكتاب، بكلمات مشجعة للعزائم والهمم كما هو دأبه، (والشيء من معدنه لا يستغرب)، فإن هذه المقالات قد كتبت تحت إشرافه، ونشرت في المجلة، كما أشكر الأستاذين الجليلين الدكتور غريب جمعة، والدكتور أشرف شعبان في كتابة كلمات كتقريظ الكتاب، فلهما جزيل الشكر والامتنان.

وأدعو الله تعالى كل من ساعدني في هذا المجال، وأسأل الله لنفسي ولهم أن يوفقهم لما يحبه ويرضاه، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت واليه أنيب.

د. محمد فرمان الندوي

أستاذ كلية اللغة العربية وآدابها

دار العلوم لندوة العلماء، لكناؤ (الهند)

٢٨/ صفر ١٤٤٦هـ الموافق ١/ سبتمبر ٢٠٢٤م

الإسلام شريعة ومنهاج

صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة

الإسلام دين التوحيد، ودين العقيدة السنية، ودين كلمة لا إله إلا الله، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن أغلى شيئ في الوجود وأثمنه عقيدة التوحيد، وهي عقيدة متدفقة بالقوة والحياة، فهي ينبوع ثرٌّ، يسقي الكون والحياة والإنسان، وهي منارة نور تضيئ الظلمات بعضها فوق بعض، وتدفع المصايب والبليات، فلا خير في الدنيا إلا بالتوحيد، ولا نجاة في الآخرة إلا بها، فكانت عقيدة التوحيد أقوى العوامل لتغيير المجتمعات من الشر إلى الخير، ومن الشقاوة إلى السعادة، قال تعالى: "أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا" [سورة الأنعام، الآية: ١٢٢].

إن عقيدة التوحيد هي الدعامة، وهي الأساس، مثلها مثل شجرة طيبة أصلها ثابت، وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فكلما كانت عقيدة التوحيد راسخةً في القلوب، ومتأصلة في النفوس كانت آثارها واسعة النطاق، وإذا كانت ضئيلةً كانت آثارها مثل ذلك، وقد ظهرت نتائج هذه العقيدة في سالف الزمان، والواقع أن عقيدة التوحيد صنعت أفراداً كانوا

مفخرة التاريخ وتاج الإنسانية، وكانوا خير خلف لخير سلف، إن سلسلة الأنبياء منذ آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم شاهدة عدل على هذا، كل نبي دعا قومه إلى الله تعالى، وإلى التوحيد الخالص، بقوله: ما لكم من إله غيره، فكل من تمسك بها وجد لذة الحياة، وفاز بالجنة والنعيم، ومن رفضها خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

إن رسولنا العظيم بعث لتطهير العالم وخاصة جزيرة العرب من عبادة الأوثان والأصنام، فقد نشر عقيدة التوحيد، ونصب فيها رايتها قائلاً: لا يجتمع فيها دينان[1]، فطهرت جزيرة العرب من عبادة الأصنام، وجعل يكسر الأصنام يوم فتح مكة قائلاً: "قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا" [سورة الإسراء، الآية: ٨١] وقد انتشر الصحابة رضي الله عنهم في البلدان المختلفة، فانتشر نور التوحيد في أرجاء المعمورة، فكان من ثمارها الخلافة الراشدة على منهاج النبوة، وكان كل فرد من أفراد هذه الخلافة نموذجاً عالياً وقدوةً حسنةً إلى يوم القيامة.

صنائع فاق صانعها ففاقت
وغرس طاب غارسه فطابا
وكنا كالسهام إذا أصابت
مراميها فراميها أصابا[2]

---

[1] صحيح البخاري: ٣١٦٨.

[2] أبو فراس الحمداني.

إن عقيدة التوحيد تُغيِّر الحياة، وتوقف التيارات، وتسدُّ مجاري الشرك والفساد، وحينما دخلت هذه العقيدة في القلوب وتغلغت في أحشاء النفوس أحدثت انقلاباً، وأنشأت جواً هادئاً من الأمن والسلام، وقد رأى التاريخ الإسلامي هذا الانقلاب في الرعيل الأول، فسجَّله بمداد من نور.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً مهيباً، قاسياً شديداً، فما إن نطق بكلمة لا إله إلا الله، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى تغيَّر اتجاهه وموقفه، فكان رجلاً، لا يحب الباطل، ولم يكن من الباطل في شيئ، جعل الله الحق على لسانه وقلبه، وكان وقافاً عند كتاب الله تعالى، وكان قبل إسلامه يرعى أغنام أبيه الخطاب، ثم جعل يحكم العالم بعد إسلامه، رضي الله عنه وأرضاه، وإن حرام بن ملحان يقول عند إصابته السهم: "فزت ورب الكعبة " فتزعج هذه الجملة قاتله جبَّار بن سلمى، ويتفكر في عقيدة التوحيد وفوز الإنسان به، فيدخل في الإسلام[1].

وكان في أهل خيبر عبد أسود حبشي، كان في غنم لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح، فسألهم، فلما أخبروه بأنهم يقاتلون محمداً، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فعرض النبي صلى الله عليه وسلم عليه الإسلام، فأسلم وقاتل حتى

---

[1] صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع.

استشهد في غزوة خيبر، ودخل الجنة ولم يصل لله سجدةً فقط[١].

وكان في تبوك مسلم مسكين اسمه عبد الله ذو البجادين، وكان يشتاق إلى الإسلام، لكن قومه ينهونه عنه، ويضيقون عليه حتى تركوه في بجاد أي رداء واحد، فاتزر بواحد واشتمل عليه، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل: ذو البجادين، ومات في تبوك، وقد شيَّعه رسول الله صلى الله عليه وسلم في ظلام الليل، قال عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة[٢].

فعقيدة التوحيد صبغة الله في الأرض، فمن اصطبغ بهذه الصبغة، كانت له الغلبة والرفعة والسناء والتمكين في الأرض، ومن انحرف عنها وابتعد منها كان نفاقه جليًا، وكان كفره واضحاً، فالتوحيد يصنع العجائب، ويأتي بالغرائب، ويبهر الألباب ويدهش العقول، وإن ما نراه اليوم من تشتت البال، وتفكك النظام، والقلق النفسي يرجع سببه إلى ضعف عقيدة التوحيد، وضآلة معنوية الإيمان، وبيع الدين بثمن بخس دراهم معدودة، وإيثار العاجل على الآجل، لأن التوحيد قيام للناس، فإذا اختل هذا الشيئ تعرض نظام العالم للفساد والدمار، فلا عزة ولا كرامة إلا بالتوحيد والإيمان والإحسان، ولا ضعف ولا استكانة إلا بالشرك والكفر والعصيان، قال الله تعالى: "وَمَنْ

---

[١] زاد المعاد، ١/٣٩٣.

[٢] سيرة ابن هشام، ص: ٥٣٧.

يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ" [سورة الحج، الآية: ٣١].

وقال العلامة السيد سليمان الندوي:

"إن الأمم التي لا عهد لها بعقيدة التوحيد لم تكد تعرف معنى الإنسانية، وكانت تعد نفسها عبيدة خاضعة لكل مظهر من مظاهر القوة. وإن عقيدة التوحيد التي جاء بها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هي العقيدة التي استطاعت أن تحرر الإنسانية من المخاوف التي كانت تسيطر على شعوره، فأصبح بهذه العقيدة لا يخاف أحداً إلا الله"[1].

---

[1] سيرة النبي، ج ٤/ ٣٨٦.

أفحكم الجاهلية يبغون؟

الإسلام دين العدل والإنصاف، دين القسط والاعتدال، دين المحبة والمودة، دين النظام والقانون، دين يقضي على الظلم والاضطهاد، دين يقتلع جذور الشر والفساد، وذلك بالتربية الروحية، وقمع أسباب الفساد، وتنفيذ الحدود والقصاص، دين يعلن بكل صراحة: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" [سورة البقرة، الآية: ١٧٩]، دين يحتوي ثلث كتابه المقدس على التشريع والتقنين، وقد أزال بهذه القوانين جميع المنكرات، وسدَّ منافذ الطغيان والعدوان، وملأ قلوب أتباعه بتقوى الله عز وجل، وقال الله تعالى: "وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ" [سورة البقرة، الآية: ١٩٧].

أشرقت شمس الإسلام، فكانت هناك قوانين وضعية، ودساتير صناعية، تواصل تحتها الإنسانية ركبها الحضارى، لكنها أفلست في روحها ومعنويتها، لأنها لا تفي بحاجتها، ولا تحقق متطلباتها، وقد جرّت على أصحابها كثيرًا من الويلات والخسارات، وكان العصر الجاهلي عصرًا حكمت فيه شريعة الغاب، واستولى على الأذهان قانون العصابات، فكان الإنسان في

هذا العصر محرومًا من العدل والإنصاف، وانتشرت في المجتمعات رذائل وخرافات، وقد ملت الإنسانية ممارستها، ولا تزال تبحث عن سبيل للخلاص منها، فجاء الإسلام بشريعة عادلة، وقانون معتدل، ودستور شامل، تتنفس الإنسانية فيه الصعداء[١]، وارتاح فيه أفرادها – حتى من أعرض عنه عُدّ كافرًا وظالمًا وفاسقًا – قال الله تعالى: "وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ" [سورة المائدة، الآية: ٤٤]، "وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" [سورة المائدة، الآية: ٤٥]، "وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" [سورة المائدة، الآية: ٤٧] مرة قال سيدنا أبو ذر الغفاري رضي الله عنه لعبده: يا ابن السوداء! سمع النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا أبا ذر! إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم[٢].

كانت القرون المشهود لها بالخير فترةً، هب فيها نسيم الأمن والأمان، وارتجت آفاقها بهتافات السلام والإسلام، كانت اتجاهات الخير مستوليةً على الضمائر والقلوب، ينعم الناس فيها بالسعادة والهناء، وذلك في ظل القانون الإسلامي، والحكم الإيماني، وقد سجلت ذاكرة التاريخ أن امرأة واحدة تمر بصنعاء إلى حضرموت في اليمن، وهي تتلاعب بأكوام من الذهب والفضة، لكنها لا تخاف زمام القيادة من أيدي المسلمين ساد المجتمع نظام

---

[١] تَنَفَّسَ الصُعَدَاء: تنفّس نَفَسًا ممدودًا، والصعداء معناها اللغوي: المشقة.

[٢] صحيح البخاري: ٢٤٠٧، وصحيح مسلم: ١٦٦١.

الظلم والعدوان، وعم فيها الهلع والخوف، والذي زاد الطين بلة أن الإنسانية فقدت الأمن والأمان على الأموال والأرواح – ولاشك أن الإنسانية جربت لتوفير الأمن والسلام كثيرًا من النظم والحضارات، لكنها باءت بالفشل الذريع، واستحقت بالخيبة الشاملة، وهذه النظرات من الشيوعية والرأسمالية والعلمانية لم تثبت جدارتها في مجالات العمل وميادين الجهاد، واحتلت مكانها الآن الجمهورية، ويا لها من جمهورية! يشتد فيها الأمر تفاقمًا، ويختل النظام فسادًا، وتتدهور الإنسانية خلقًا واعتقادًا – فالإنسانية تستغيث، وتبحث عن ملجأ تأوي إليه فرارًا من هذه البليات والمصائب – والواقع أنه لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه.

شهد العالم الإنساني جاهليةً في القرن السادس المسيحي، وكانت الإنسانية منها على شفا جرف هار، فأنقذها من الهلاك والدمار سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولاشك أن جاهلية جديدة في صورة الحضارة العفنة القذرة قد اشرأبت أعناقها في القرن العشرين الميلادي، كادت تبتلع الإنسانية لولا جهاد وجهود الدعاة المخلصين في سبيل الله تعالى، وتلفظ نفسها الأخير، لولا سقيت أرض الإنسانية بدماء الشهداء الغزار، وحينما طلع نجم الحادي والعشرين الميلادي بدأت القوى الشريرة والحشائش الشيطانية تعيث في الأرض فسادًا، وتحاول أن تعود الإنسانية – لا قَدَّر الله تعالى – إلى ذاك المصير المشئوم، ولن تجد الجاهلية المنتنة سبيلاً إلا المجتمعات، بل ستزول تبعاتها على عجل، قال الله تعالى: "كَتَبَ اللَّهُ

لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ" [سورة المجادلة، الآية: ٢١].

إن اليهود في المجتمع المدني كانوا أهل كتاب سماوي، لكنهم يؤثرون قانون الجاهلية – ورد في سنن أبي داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قريظة والنضير – وكان النضير أشرف من قريظة – فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير – قتل به، وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، فودي بمائة وسق من تمر، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، فقالوا: ادفعوه إلينا نقتله، فقالوا: بيننا وبينكم النبي صلى الله عليه وسلم، فأتوه فنزلت: والقسط النفس بالنفس، ثم نزلت: "أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ" [سورة المائدة، الآية: ٥٠][1].

هذا هو الحكم الجاهلي أن يكون حبل الإنسان على غاربه، لا قانون، ولا نظام، ولا شريعة، ولا دين، يأكل الإنسان مثل البهائم، ويرتع في الشهوات، ويتمتع باللذات، فالإسلام لا يحب هذه الحرية، بل يفرض الحظر عليها، ولاشك أن هذا الحكم يضاد الفطرة، ويخالف الطبيعة، ومعلوم أن الزبد يذهب جفاء، ويضيع هدرًا، فالجاهلية وما والاها زبد وغثاء، والحق جوهرة ولباب، فإن الزبد وإن كان كثيرًا ليس له بقاء ولا استمرار، قال الله تعالى: "فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ" [سورة الرعد، الآية: ١٧].

---

[1] سنن أبي داؤد: ٤٤٩٦.

ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون

الإسلام دين الرقي والازدهار، دين الفتح والانتصار، دين الرجاء والأمل، دين الجهد والعمل، "والخير معقود بنواصي الخيل"، وقد بعث الإسلام في أتباعه روح العمل، ونزع منهم شعور الخيبة واليأس، وملأ صدورهم بالإيمان والثقة بالنفس، وأكد هذا المعنى بقوله تعالى: "أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى. وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى. أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى. وَأَن لَّيْسَ لِلإنسان إِلاَّ مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَآءَ الأَوْفَى. وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى" (النجم: ٣٦ – ٤٢).

كان العالم يعيش قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم في نفق مظلم، لا يعرف مصيره، ولا يُدرك عاقبته، وكان اليأس والقنوط قد خيَّما على عقله وفكره وروحه، ففقد الإنسان الطموح والسمو الروحي، ورضي بالدون، ولحق بالحضيض، وكان كل صنف من أصناف البشر يائساً من مستقبله، وقانطاً من حياته، إذ هبت ريح الإيمان ببعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فانتعشت البشرية، وجرت فيها روح جديدة، ونادى القرآن نداءً، ملؤه بشارةٌ ورجاءٌ واعتزاز بالنفس: "قُلْ يا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ

عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" (الزمر: ٥٣).

وقد رأى العالم مكاسب الرجاء والأمل، ومضار اليأس والقنوط، على مر التاريخ، فربح العالم بالرجاء، وخسر بحرمانه، كانت القرون المظلمة في أوربا قرون الركود والتخلف في كل شيئ، انقطع فيها الرجاء، واسترخى نظام الأمل، ذلك لأن المسيحية تؤمن بأن الإنسان مذنب فطريًا، وكان صلب عيسى عليه السلام – حسب معتقداتهم – "كفارة وفداءً له عن الذنوب"، فكان هناك تشاؤم بالرب، وقد أنتج هذا الكابوس خسارةً لا تُعوض، لكن إشراقة الإسلام قد أضاءت هذه القرون، فتيسر للمسيحية الهبوب من غفوتها والنهوض من نومها، فخرجت من الخمول إلى الظهور، وكل ذلك رهين بمعجزة الإسلام والنبي عليه الصلاة والسلام.

تأتي في حياة الإنسان أوضاع وظروف يفقد فيها الأمل، ويخسر الرجاء، ويستولي عليه سوء الظن بالله تعالى، ويأس عن المستقبل، ويحجب عن عينه – ولو للمحة – نداء الله: وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (الأعراف: ١٥٦)، وقد مرَّ الأنبياء بمثل هذه الأحوال الحرجة، لكنهم كانوا مفعمين بحرارة الأمل، والثقة بالله تعالى، هذا سيدنا إبرهيم عليه السلام يقول: وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ (الحجر: ٥٦)، وهذا يعقوب عليه السلام ينصح أبناءه: وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (يوسف: ٨٧). وقد فتح الله باب الرجاء بالتوبة، فكل من كان متشبثاً بهذا الركن

كان شاكراً لله، متفائلاً بالأحوال الطارئة، لأنه يعتقد أنها غمرة تنجلي، أو غمة تنكشف، وقد كان السلف الصالح كثيري الرجاء منيبين إلى الله تعالى، فكان هذا الهتاف على لسانهم:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرةً
فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن
فبمن يلوذ ويستجير المجرم
أدعوك رب، كما أمرت تضرعاً
فإذا رددت يدي، فمن ذا يرحم[1]

يمرُّ العالم الإسلامي اليوم بحوادث، يتأثر بها قلب المسلم الواعي، فتارة يشعر في نفسه بالخيبة، وتارة أخرى يُصاب بمركب النقص، وتارة يعتقد أن لا مستقبل للإسلام والمسلمين، ولا تكون لهم قيمة في تاريخ الأمم، ولا شك أن هذا دليل على قلة معرفته بتاريخ الإسلام، وضعف ثقته بالله ووعده بالنصر، فلو درس الإسلام دراسةً واعيةً أيقن بأن الإسلام قد اجتاز مثل هذه العقبات، والعراقيل، وقد حدثت أوضاع اضطرت الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه إلى أن يقولوا: متى نصر الله؟ فجاء النداء الرباني: "أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ" [سورة البقرة، الآية: ٢١٤]، وصدق الله تعالى: "وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِىُّ الْحَمِيدُ" [سورة الشورى، الآية: ٢٨].

---

[1] ديوان أبي نواس: ١٤٠.

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا

الإسلام دين الوحدة والتضامن، دين الأخوة والمساواة، دين يتساوى فيه جميع أفراد البشر، دين يتفاضل فيه الإنسان على أساس التقوى، فلا لون فيه ولا دم، ولا حسب ولا نسب، ولا زهو ولا نخوة، ولا فخفخة ولا استعلاء، كلكم من آدم وآدم خلق من تراب.

الوحدة قوة وحياة، والتفرق ضعف وموت، كلما توحدت الأمة في أمر أحرزت نجاحاً باهراً، وكلما ابتُليت بانتكاس وتفرق ماتت في عقر دارها، ولم يبق لها عين ولا أثر، وقد أوصى الله تعالى بالوحدة والتضامن على اختلاف الأجناس والألوان، وتباين الديار والأمصار، فقال: "وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً" [سورة آل عمران، الآية: ١٠٣].

شهد العالم الإنساني في مختلف الدول أنواعاً من التفرق، ولا شك أن الاختلاف فطرة إنسانية، وقد شهد بذلك القرآن الكريم: "وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ" [سورة الروم، الآية: ٢٢] هذا الاختلاف للتعارف لا

للتناكر، للتنوع لا للتناقض، لكن حينما جعل أداةً للتفرق والتشتت توزعت الأمة بين خلايا متنوعة كثيرة، كفى الهند ذكراً أنه قد انقسم سكان الهند منذ القدم إلى أربعة أقسام: ١—طبقة رجال الدين (وهم البراهمة) ٢—رجال الحرب ٣—رجال الفلاحة ٤—رجال الخدمة، وقد كان هذا التقسيم محموداً لديهم، إذ أشرقت شمس الإسلام على أرضها فأتحفت بوحدة الرب ووحدة الأب، فانكمشت تلك الفوارق، وزالت تلك الحواجز التي أقامها الناس للتقديس والاحترام.

جاء الإسلام فجمع بين القاصي والداني، وألَّف بين القلوب المتناكرة، والقلوب المتحابة، وملأها رحمةً ومودةً، وحباً وألفةً، فهذا بلال الحبشي، وهذا سلمان الفارسي، وهذا صهيب الرومي رضي الله عنهم، كلهم غير العرب، لكن الإسلام ربطهم في خيط واحد، وأقامهم على رصيف واحد، فلا يحبون إلا لله تعالى، ولا يبغضون أحدًا إلا لله، ولا يجتمعون ولا يتفرقون إلا لله وفي الله، فامتلأ الجو إيماناً وإخلاصاً، وقد بذل الصحابة رضي عنهم لإبقاء أواصر الحب والوحدة جهوداً مضنيةً، فهذا الحسن بن علي رضي الله خليفة المسلمين، حينما شعر بأن هناك طائفةً من الناس تريد أن تُحدث الشقاق في المجتمعات الإنسانية، وتسلب روحها وجوهرها، وكاد أن يستتب الجو لهذه الطبقة، ضرب مثالاً رائعاً إلى يوم القيامة بعمله التاريخي العملاق، بحيث تنازل عن منصب الخلافة دحراً لهذه الفتنة العمياء، وصدق ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم:

إن ابني هذا سيد، لعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين[1].

العالم كله من شرقه إلى غربه متألم بالتفرق والتمزق، ومثخن بجراحات الاختلاف والنزاع، وهو يئن من وطأة الأثقال، وكلوم الأجساد، ويطلب الغوث والنجدة من أولي الغيرة والإيمان، ولا يمكن جمع الأمة على رصيف واحد إلا بتزكية القلوب، وجمعها على كلمة واحدة، وعلى أساسيات الدين الحنيف، هنالك يسود العالم جو من الأمن والسلام، والأخوة الدينية، قال شاعر:

رص الصفوف عقيدة
أوصى الإله بها نبيه
ويد الإله مع الجماعة
والتفرق جاهلية

ولا شك أن أخوة الإسلام هي العروة الوثقى، التي لا انفصام لها، فقد انخرط المسلمون في سلك واحد، وإن كانوا من شتى البلدان، لا يكسر هذه العلاقة حدثان الدهر، ولا نكبات الزمان، فإذا كان المسلم في أقصى الأرض، وهو يتعرض للظلم والاضطهاد، ويستهدف للتشريد والتقتيل، فلا يكون أخوه مسلمًا حقيقيًا إلا بتقديم النصر إليه وعلى أقل تقدير ـ الدعاء له، وقد كان المسلمون السابقون غيارى للإسلام، قاموا لنجدة إخوانهم في

---

[1] صحيح البخاري (٢٧٠٤).

جنح الليل، وفي حر الظهيرة، وقد دل على ذلك صراخ: وا معتصماه، فالعالم الإسلامي يحتاج إلى مثل هذا المستغيث الضعيف المسكين والمغيث العبقري العصامي، فأنّى لنا ذلك؟ ومن يعيد هذا التاريخ المشرق اليوم؟

قال معن بن زائدة:

تأبى الرماح اذا اجتمعن تكسرا
وإذا افترقن تكسرت أفراداً
كونوا جميعاً يا بني إذا اعترى
خطب ولا تتفرقوا آحاداً

...ولا تكن الخامسة ،فتهلك !

الإسلام دين العلم والمعرفة، دين التفكر والتدبر، دين العقل والقلب، دين الروح والمادة، دين يجمع مختلف طوائف البشر بالعلم، دين يميز به بين الخاصة والعامة، فكما أن النور والظلمة، والليل والنهار، والسماوات والأرض لا تستويان، كذلك لا يستوي في الإسلام العالم والجاهل، قال الله تعالى: "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ" [سورة الزمر، الآية: ٩].

وقد حث الله تعالى الناس على التفكر في آلاء الله تعالى قائلاً: أفلا يتدبرون، أفلا تعقلون، أفلا تبصرون، ولاشك أن هذه الصفات لها صلة وطيدة بالعلم، فلا يكون التفكر معتبراً إلا بالعلم، وردت فضائل كثيرة في القرآن الكريم والحديث النبوي عن العلم وأهله، تتجلى منها أهميته وحاجته في كل عصر ومصر، قال الله تعالى: "شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ" [سورة آل عمران، الآية: ١٨]، وقال رسولنا العظيم محمد صلى الله عليه وسلم: الدنيا ملعونة، ملعون

ما فيها إلا ذكر الله، وما والاه، وعالماً ومتعلماً[١]، ولاشك أن العلم مفتاح كل سعادة، ومعراج كل رقي، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تعلَّموا قبل أن تسودوا[٢].

إن علاقة العلم باسم الله قديمة قدم التاريخ، وربط مصير العلم باسم الله أول مرة حينما جعل الله عز وجل سيدنا آدم خليفةً في الأرض، وقد علَّم الله آدم عليه السلام الأسماء، فارتفعت مكانته بين الملائكة وسمت درجته، ولاشك أن علم سيدنا آدم عليه السلام كان يغطي جميع الكائنات، فلم يكن هناك تقسيم للقديم والحديث، والإسلام لا يعتبر هذا التقسيم صحيحاً، بل يجعله جوراً على العلم، لأنه يضاد الفطرة الإلهية، ويخالف سنة الله في الكون، قال الله تعالى: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ" [سورة فاطر، الآيتان: ٢٧ – ٢٨]، وإن تأملاً قليلاً في هذه الآية يكشف لنا عن أمرين: أولاً: العلوم كلها لله، ثانياً أن العلوم الكونية أيضاً تحدث الخشية في قلب الإنسان، بشرط أن يكون الإنسان متصلاً بحبل الله، مفعماً بروح التقوى.

مرت في التاريخ فترات مظلمة كان العلم منقطعاً عن اسم

---

[١] رواه الترمذي: ٢٦٠١.

[٢] صحيح البخاري، كتاب العلم.

الله تعالى، كانت الحِرف والصناعات، وكانت العلوم والتقنيات، لكنها كانت مجردةً من روح العلم، فما أورثت هذه العلوم إلا بلبلةً فكريةً، وفوضى اجتماعيةً، حرمت المجتمعات الإنسانية سعادتها، وأصيبت بشقائها، وضاعت الأموال، وقلت الثمرات، وابتلي الناس بأنواع من الفتن والمحن، وكلما تجرد العلم عن اسم الله أراق الدماء وانتهك الأعراض، وأتى على الحرث والنسل، وإمامنا الآن مثالان في تاريخ الإنسان:

١—كان الزمن الجاهلي قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم قد بلغ في ضآلة العلم إلى آخر حد، وطالت الفترة على بعثة الأنبياء عليهم السلام، ولم يكن لتعاليمهم إلا بصيص قليل، وأثر ضئيل، فبفقدان العلم انطبعت آثار سيئة على ذلك المجتمع، كان هذا المجتمع مظهراً لكل نوع من السيئات والفواحش، حتى طلعت شمس الإسلام من غار حراء، فأضاءت العالم بنورها الساطع، وأول درس أفاض على الإنسانية هو العلم، وذلك مقروناً باسم الله تعالى، فصار هذا العهد عهد الإسلام، عهد العلم والتعليم، وامَّحت الأمية والجهالة وكل نوع من الفواحش والمنكرات، قال الله تعالى: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ" [سورة العلق، الآيات: ١—٥].

٢—كانت أوربا في القرون المظلمة معاديةً للعلم وأهله، كان أهلها يعيشون عيشةً غير مرضية، فإذا به قد وصل نور العلم إليها

عن طريق علماء الإسلام الذين وصلوا إلى الأندلس، فنهضت نهضة بهرت الألباب، ولاشك أن رقي أوربا كله مدين للإسلام، لكنها أخذت القشور وتركت اللباب، ولم تربط علاقتها باسم الله، فكانت حالتها كما صوَّر الدكتور محمد إقبال: "لقد تضخم العلم وتقدمت الصناعة في أوربا، ولكنها بحر الظلمات، ليست فيه عين الحياة، وإن الأمة التي لا نصيب لها في التوجيه السماوي والتنزيل الإلهي، غاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار، وإن العلم والحكمة والسياسة والحكومة التي تتبجح به أوربا مظاهر جوفاء، ليست وراءها حقيقة، إن قادتها يمتصون دماء الشعوب، وهم يلقون درس المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية" هذا كله نتيجة عدم علاقة العلم باسم الله عز وجل.

هذا العصر المادي يفقد العلم المتصل باسم الله، فيئن ويتململ، ويمشي قليلاً فيتدحرج، ولم يدرك السر، ولم يصل إلى مركز الداء، وقد نشأت فتن كثيرة، ولا يزال يشتعل أوارها، وتتعقد المشكلات وتتفاقم، وتتأزم الظروف وتتعفن، فالعلاج الوحيد في هذه المرحلة العصيبة هو توطيد صلة العلم باسم الله تعالى، هنالك تنحل المشاكل، وتتفكك المعقدات، وقد وصف النبي محمد صلى الله عليه وسلم لمثل هذا الأمر وصفة حكيمة، فقال: أغد عالماً، أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً، ولا تكن الخامسة، فتهلك، والخامسة أن تبغض العلم وأهله[1].

---

[1] رواه البيهقي، في شعب الإيمان: ١٥٨١.

ولكن كونوا ربانيين...

الإسلام دين التعليم والتربية، دين الإصلاح والدعوة، دين التأصيل والتطبيق، دين لا يكتفي ببيان الأصول والقواعد، بل يتسع إلى العمل والنشاط، فهو دين شامل يغطي جميع نواحي الحياة: الفردية والجماعية، فليس فيه اعتناء بالجسد فقط، ولا انحصار على الروح وحدها، بل يجمع بينهما باتزان واعتدال، وذلك بقوله تعالى: "رَبَّنَآ آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" [سورة البقرة، الآية: ٢٠١].

كان بدء النظام الإنساني وفضيلته بالتعليم، فالمعلِّم الأول هو الله عز وجل، الذي علّم آدم الأسماء كلها، حتى فاق الملائكة، بل سجدوا له إلا إبليس، وكان كل نبي من سيدنا نوح عليه السلام إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم متصفاً بزينة التعليم والتربية، ومتحلياً بحلية الدعوة والإصلاح، ومؤدياً حقوق الروح والجسد معاً، حتى قال صلى الله عليه وسلم: أدّبني ربي فأحسن تأديبي[1]، وقال: إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض، فتعلموا من

---

[1] الجامع الصغير عن ابن مسعود رضي الله عنه.

مأدبته[1]، وكان التعليم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم يجمع التربية بأتم صورتها، ولم يكن مجرد معرفة رسوم وشكل حروف، فكل من يتعلم لا يتعلم إلا للعمل وتطبيقه على الحياة والمجتمع، فكان في نفسه منارة إيمان، ومشعل نور، يتنور منه الكون، وكان مصباحاً يضيئ العالم بأشعته الساطعة، وإذا خرج هذا الرجل من بيته استضاءت الدنيا من نوره، وكان تأثيره على الحيوانات والجمادات والأشجار، وحصلت له قوة التسخير، قال الله تعالى: "وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ، إِنَّ فِى ذلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" [سورة الجاثية، الآية: ١٣].

ولكن أتى على الناس زمان انقطعت فيه علاقة التعليم بالتربية، وانفصلت عُراها، فرغم أن الإنسان قد درس أسفاراً ومجلدات من الكتب، وشرب كؤوس العلم والمعرفة، لكن لا ينوّر هذا العلم نفسه، فضلاً عن الكون والحياة والإنسان. وقد صوّر هذا الواقع الدكتور محمد إقبال في إحدى قصائده: "لقد تضخم العلم وتقدمت الصناعة في أوربا، ولكنها بحر الظلمات ليست فيه عين الحياة، إن أبنية مصارفها تفوق أبنية الكنائس في جمال البناء وحسن المظهر والنظافة، إن هذا العلم والحكمة والسياسة والحكومة التي تتبجح به أوربا إلا مظاهر جوفاء ليست وراءها حقيقة، إن قادتها يمتصون دماء الشعوب وهم يلقون درس المساواة

---

[1] الجامع في شعب الإيمان: ١٧٨٦٠.

الإنسانية والعدالة الاجتماعية"[١].

بين التعليم والتربية ازدواجية، وكلما جرت محاولة لفصل هذه الازدواجية جرَّت ويلاتٍ كثيرة، والتعليم سلاح ذو حدين، إذا استُخدم في صالح الأعمال أتى بنتائج سارة، وإذا استُخدم في غيرها سبّب خسارةً لا تُعوض، شهد المجتمع الإنساني أبعاد مجرد التعليم وآثاره على أوسع مستوى، فكل ما يوجد اليوم في الدنيا من تفكك في النظام، وانحلال في الفكر، وإباحية في الأخلاق ليس وراءه إلا بون شاسع بين التعليم والتربية، وتجريد التعليم من التربية، إن المجتمع الغربي وبالتالي المجتمع الشرقي إلى حد فقد فيه الشعور بالآداب الإنسانية، وحرم القيم العليا والأخلاق النبيلة، وابتلى بنسيان نفسه فضلاً عن نسيان الله تعالى، ويعيش كما تعيش البهائم والأنعام، بل في أضل صورة وأخس شكل، فاضطُر إلى الأخذ بالقشور، وترك اللباب، والرضا بالحياة الرتيبة التي تخلو من روح وجوهر، وقد شرح الله هذا الموضوع في سورة الحشر: "وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" [سورة الحشر، الآية: ١٩].

التعليم من أهم وسائل الغزو الفكري في هذا الزمان، فإذا كان هناك خطة أو رأي يمهد التعليم طريقه نحوها مما لم يعرف الزمن القديم هذه الوسيلة، قد اتخذها الاستعمار كأداة مؤثرة لقلب الحقائق وتغيير الضمائر، ولا شك أنه نجح فيه نجاحاً، فإن التعليم لا يجعل الإنسان مثقفاً فقط، بل يغيِّر نظرته ووجهته،

---

[١] روائع إقبال للإمام الندوي: ٧٩.

ويغيِّر مساره، وتارةً يسلب من الناس عقولهم وأرواحهم، وإن ما نراه اليوم من بلبلة في أفكار الحكام والقادة، وتضعضع في الكيان الإنساني يُلمس فيه أثر التعليم السلبي واضحاً جلياً، وقد رثى بعض الشعراء الهنود لفرعون الذي خطط لقتل أبناء بني إسرائيل: "يا حسرتا على فرعون: الذي لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات، وقد كان أسهل طريق لقتل الأولاد، ولو فعل ذلك لم يلحقه العار وسوء الأحدوثة في التاريخ".

التعليم والتربية صنوان أو توأمان، وقد ربط الله بينهما في أول وحي بقوله: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ" [سورة العلق، الآية: ١]، فإذا اجتمع كلاهما حصلت الربانية، وهذه الربانية مطلوبة من كل إنسان، فالرباني هو الذي علِم وعمِل وعلَّم، والرباني هو الذي يُربي الناس بصغار الأمور قبل كبارها، فإن غاية دراستنا وتعليمنا هي الربانية، بذلك يرضى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة: "وَلَكِنْ كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ" [سورة آل عمران، الآية: ١٩]، يقول العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي: "إن الأمة الإسلامية اليوم في حاجة إلى تربية، والتربية عملية جهد طويلة، لا تنفعها جعجعة ولا صخب، بل إنما ينفعها العمل الصامت الدؤوب، وهي في حاجة إلى أن تكون على منوال العملية التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم في صحابته وقام بها صحابته في أتباعه"[١].

---

[١] العالم الإسلامي اليوم: ١٣.

وما علينا إلا البلاغ المبين

الإسلام دين الدعوة والإصلاح، دين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دين البلاغ المبين، دين ضمن الله له الخلود إلى يوم الدين، دين يوفِّر للإنسانية جمعاء الهدوء والطمأنينة والسعادة الدائمة، بشرط أن تكون صلتها بهذه الوظيفة وثيقةً، ولا شك أن الدعوة إلى الله تعالى وظيفة هذه الأمة، وواجبها الأساسي، لأجلها خُلقت، ولمهمتها بُعثت، وعلى أساسها ازدهرت ازدهاراً لا نظير له في تاريخ الأمم والشعوب، ونالت الوصاية على العالم، قال الله تعالى: "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ" [سورة فصلت، الآية: ٣٣].

بعث الله الأنبياء والرسل لهداية الإنسانية، فكان الأنبياء من لدن آدم إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد بُعثوا لها، وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ولم تكن بعثته لزمن دون زمن، بل كانت تغطي جميع كوادر الأمة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولم يُبعث هو وحده، بل بعثت معه أمته للإصلاح والدعوة، وأخرجت معه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الله تعالى: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" [سورة آل عمران، الآية: ١١٠]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: بُعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين[1].

بعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت الأمة في جهالة مطبقة، وغواية تامة، لم تكن لها رسالة ولا غاية، كان همها ومُناها التمتع بزخارف الدنيا، والاستلذاذ بالمطعم والمشرب، كانت الزراعة والتجارة، وكانت الصناعة والحرفة، وكانت النجارة والحدادة، وكانت الأموال تُستورد وتصدَّر، وكانت البضائع لها نفاق في الأسواق العالمية، وكانت القوافل التجارية غاديةً رائحةً بين الشرق والغرب، لكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان شبه مفقود، بل متضائلاً من المجتمع الإنساني، فمقت الله العرب والعجم، ورحم الإنسانية إذ بعث فيها رسولاً، فانتشرت بوجوده عواطف الخير والنفع، وهبت ريح الإيمان في كل مكان، وعمت المجتمع روح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كلما كانت روح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع الإنساني شائعةً، كانت سبباً للنجاة من كل شر مستطير، وذريعةً للخلاص من كل فتنة عمياء، وكلما تغافل عنها المسلمون وقعوا فريسةً لنوائب الزمن وحوادث الدهر، ولا شك أن حكومات المسلمين توسعت في فترات مختلفة من التاريخ، لكن قصر أهلها في الدعوة إلى الله تعالى، فلم يستمر لها البقاء والدوام على عرش

---

[1] سنن النسائي، رقم الحديث: ٥٦.

الحكم، وكذلك كل حكومة أو جمعية أو لجنة كانت مقصِّرة في أداء هذا الواجب ذهبت ريحها، ولم يبق لها عين ولا أثر، إن تاريخ القرآن الكريم يشهد أن الأمم الماضية صارت ملعونةً بلسان داوود وعيسى بن مريم بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال الله تعالى: "لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِيۤ إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ" [سورة المائدة، الآية: ٧٨]، وهذه سنة الله في الأرض أن كل من التزم بها وأخذ بأصولها أبى الله إلا أن يكون مرفوع الرأس، رفيع المنزلة، وكل من تنازل عنها أو أهملها قضي عليه بالزوال: "فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ" [سورة الرعد، الآية: ١٧].

القرآن كتاب الدعوة، فذكر خلاصة تجارب الأنبياء والدعاة، ركز الأنبياء عليهم السلام كل عناياتهم على دعوة الناس إلى التوحيد الخالص، لأنه هو الأساس والعمدة، ثم كانت عنايتهم بإزالة الأمراض الأخرى المنتشرة في المجتمعات، قال الله تعالى: "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الْطَّاغُوتَ" [سورة النحل، الآية: ٣٦].

الدعوة الإسلامية حاجة الساعة ونداء الوقت، وهي فريضة من الفرائض، فكما أن الصلاة والزكاة والصوم والحج فرضت على كل مكلَّف، كذلك كانت الدعوة الإسلامية فريضةً محكمةً على كل فرد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، لأن الدعوة هي

مبعث وجودها في الدنيا، وليس معنى البلاغ المبين توجيه الدعوة إلى المخاطب فقط، بل الدعوة إلى الله عبارة عن الاستمرارية في نشاطاتها والحرقة القلبية للمدعووين، ولا يتحقق معنى البلاغ المبين إلا باختيار الوسائل اللازمة لإبلاغ الدعوة من الصحافة والإذاعة وأجهزة الإعلام الحديثة. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم متفائلاً بالدعوة رغم الرواسب والعوائق، فإذا كان الدعاة يائسين من المدعووين كانت النتيجة صفر اليدين، وقد مدح الله أمةً في سورة الأعراف استمرت في الدعوة، فلامتها أختها، فقالت: "مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ" [سورة الأعراف، الآية: ١٦٤].

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة

الإسلام دين الإنسانية جمعاء، دين سيدنا آدم ونوح وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام، دين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، دين أنزله الله تعالى للتوجيه والإرشاد، وجعله نبراسًا يهتدي به السُراة إلى يوم القيامة، كما أنزل الله تعالى القرآن الكريم آخر الكتب السماوية قانونًا ودستورًا إلى ما شاء الله، وهو هدى للناس، ولاشك أن الإسلام والقرآن لم يظهرا في القرن السادس المسيحي على أرض الواقع إلا بالنبي الخاتم الذي كان رحمةً للعالمين، قال الله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا" [سورة الأعراف، الآية: ١٥٨]، وقال: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا" [سورة سبأ، الآية: ٨]، عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أعطيتُ خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأيما رجل أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس كافة[1].

---

[1] دلائل النبوة للبيهقي، رقم الحديث: ٢٢٠٩.

بُعث النبي صلى الله عليه وسلم بدين ربط الإنسانية بمنبعه، والأرض بالسماء، والعبد بخالقه، وقد انقطعت هذه الصلة الروحية، فامحت آثار التعاليم النبوية، وانكمشت ظلالها، فنظر الله أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، لكن رحم الله الإنسانية، فحلَّ الربيع، وودع الخريف، واخضرَّ حقل الإنسانية من جديد، وذلك ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" [سورة آل عمران، الآية: ١٦٤].

فكانت البعثة المحمدية معراجًا للإنسانية، بلغت بها أوج الرقي، ونالت الشرف والعظمة، واستعادت العزة والكرامة، فصارت السيرة النبوية هي أسوة كاملة للإنسانية، كانت هناك سلسلة من الأنبياء من لدن آدم إلى عيسى عليه السلام، وفضَّل الله بعضهم على بعض، لكن الأسوة النبوية جمعت جميع هذه المزايا والخصائص، فليست هناك أسوة سوى أسوة النبي صلى الله عليه وسلم يُقتدى بها ويُحتذى، وقد قال تعالى: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا" [سورة الأحزاب، الآية: ٢١]، وقد كانت السيرة النبوية وصفًا دقيقًا لحياة النبي صلى الله عليه وسلم منذ ولادته إلى يوم وفاته، وقال علي بن الحسن رضي الله عنه: كنا نتعلم مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما كنا نتعلم سور القرآن،

وقال محمد بن شهاب الزهري: في علم المغازي علم الدنيا والآخرة، وقال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص: كان أبي يعلِّمنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يقول: هذه مآثر آبائكم فلا تضيِّعوها، وقد أصبحت هذه الأسوة مصدر كل خير، ومنبع كل سعادة، ذلك لأنها تتصف بأربعة عناصر:

(١) التاريخية، (٢) الشمول، (٣) الكمال، (٤) العملية.

يقول العلامة السيد سليمان الندوي: "إن الشخصية التي تختارها البشرية أسوة وقدوة قابلة للتقليد والاتباع ينبغي أن تتوافر فيها العناصر الأربعة، لم تمر في التاريخ شخصية دُونت سيرتها، مثل ما دونت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بأمانة وصدق، واستوعب النبي صلى الله عليه وسلم بدعوته كل أصناف البشر، ولم يترك جانبًا من جوانب الحياة إلا وقد ملأه بعمله، وبلغ به إلى مدارج الرقي والكمال"[1].

الإسلام دين العمل والتطبيق، دين الإدراك والتمثيل، دين القدوة المثالية، والأسوة الحسنة، ومعلوم أن أسوة النبي صلى الله عليه وسلم تتضمن سعادة الإنسانية، فلا تجد الإنسانية الفلاح والنجاح إلا في السيرة النبوية: الإيمان بأن النبي صلى الله عليه وسلم مبعوث من الله تعالى، والاتباع الكامل لسنته وعمله، وفقنا الله تعالى للائتساء بهذه الأسوة والانتهاج بمنهج النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

---

[1] الرسالة المحمدية للعلامة السيد سليمان الندوي.

الصلاة: من ضيعها فهو أضيع لما سواها

الإسلام دين الشعائر والعبادات، والإسلام دين العقائد والتطوعات، وقد فرض الله الصلوات على الإنسان لينال رضاه، ويناجي ربه كل حين وآن، فالإنسان في خضم الحياة المادية يحتاج إلى حاجة ملحة إلى من يفرّق عنه همه وغمه، ويبعث في نفسه الطمأنينة القلبية، ويقرّبه إلى الله سبحانه وتعالى، ولا يمكن ذلك إلا بظل الإسلام والإيمان، ولا يتيسر ذلك إلا بظل العبادات العظيمة في الإسلام، ولا تحصل السعادة القلبية والطمأنينة الداخلية إلا بالصلوات المكتوبات والنوافل، ذلك لأن هذه الصلوات هي الدواء الناجع للخلاص من الماديات الرعناء، والصلاة في الحقيقة صلة بين العبد والرب، والصلاة فريضة الله على عباده، والصلاة معراج المؤمنين، والصلاة عمود الدين والإسلام، والصلاة علامة فارقة بين الكفار والمؤمنين، والصلاة ركن أساسي للهداية والإيمان، ومنزلة الصلاة بمنزلة الرأس من الجسد، فكما لا حياة للإنسان لمن لا رأس له، كذلك لا دين للإنسان لمن لا صلاة له، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: الصلاة عماد الدين، من أقامها أقام الدين، ومن هدمها هدم الدين.

هناك نوعان من الصلاة: صلاة مقبولة عند الله سبحانه وتعالى، وهي ترفع إلى السماوات العلى، وتكون سببًا للدخول في الجنة، وللابتعاد عن النار، وقد مدح الله عزوجل المؤمنين الذين يزينون صلاتهم بخشوع وإخلاص، قال تعالى: "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ" [سورة المؤمنون، الآيتان: ١—٢) ونوع آخر من الصلاة، وهذه الصلاة تكون مجردةً وخاليةً من الإخلاص، فهذه الصلاة تضرب على وجوه المصلين، فيبدأ الإنسان هذه الصلوات ويذهب نفسيًا وذهنيًا إلى مجالات الحياة، ويكون الإنسان في المسجد، لكن ذهنه يكون في الأسواق والمجالس، وقد قبح الله المصلين الذين يتصفون بهذه الصفة، فقال: "وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ" [سورة الماعون، الآيتان: ٤—٥] فالويل له معنيان: الهلاك والدمار، والويل: هو واد في جهنم -

قد أمر الله المؤمنين بالقيام بالصلاة، وبإقامتها، ومعلوم أن إقامة الصلاة لها ثلاثة معان: المعنى الأول لإقامة الصلاة هو بناء المساجد، قال تعالى: " إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ" [سورة التوبة، الآية: ١٨]، والمعنى الثاني لإقامة الصلاة هو تسوية الصفوف وتعديل الأركان قال النبي صلى الله عليه وسلم: سووا صفوفكم، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة (رواه البخاري: باب إثم من لم يصف الصف عن أنس بن

مالك رضي الله عنه) والمعنى الثالث لإقامة الصلاة هو الأمر بالصلاة للأولاد والأقربين، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى فقال: مروا أولادكم بالصلاة، وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها، وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع[١].

الصلاة فريضة دائمة على كل مسلم، سواء كان غنيا أو فقيرا، مقيما كان أو مسافرا، رجلا كان أو امرأة، حرا كان أو عبدا، حتى إن الصلوات لا تسقط عن ساحة الحرب، وحالة المرض، وقد شرعت صلاة الخوف، وهذه الصلوات هي ميزان في الحياة الإنسانية، ومن كانت صلاتهم حسنةً كانت حياتهم حسنةً وجيدة وصحيحة، ومن كانت صلاتهم فاسدة كانت حياتهم مضطربة قلقة، ولا تكون حسنة، وقد أشار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى فقال: فمن حفظها حفظ الدين، ومن ضيعها فهو أضيع لما سواها[٢].

إن كل شيئ في الكون يسجد لله عزوجل، ويسبح له مافي السماوات وما في الأرض، فكان سجود المخلوقات الأخرى غير الإنسان والجن هو الانقياد لأمر الله والخضوع أمامه والتوجه إليه، فلا يتغافل أي مخلوق عن عبادة الله وتسبيحه، وهو يقوم بكل ما أمر الله به، ولا يحيد عنه قيد شعرة، غير أن الإنسان لا يدرك كيفية سجود هذه المخلوقات، وعبادتها، فليس معنى ذلك أن هذه

---

[١] رواه أبو دادو عن عبد الله بن عمرو بن العاص، باب الصلاة.

[٢] رواه مالك في الموطأ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

المخلوقات لا تسجد ولا تعبد، فهناك كثير من الأشياء لا يدركها الإنسان، ولايعرفها حق المعرفة، لكنها تعمل وفق ما كلفها الله تعالى، وأمره، فإذا كان الإنسان لا يعرف لغة بني جلدته، ولسان بني جنسه، فكيف يمكنه أن يعرف لغات المخلوقات الأخري، وتسبيحاته، وقد صدق الله تعالى: "وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ" [سورة الإسراء، الآية: ٤٤]، إذا تأملنا قليلا في هذا الناحية عرفنا أن الإنسان مقصر أيما تقصير في واجبه الذي وكله الله تعالى إياه، وأداء مهمته التي أسندها الله إليه، رغم أن الصلاة هي أولى المسئوليات والواجبات التي يسأل عنها الله تعالى يوم القيامة، فإذا صلحت صلح سائر عمله، واذا فسدت فسد سائر علمه، فلابد من التركيز على هذه الصلوات الخمس التي فرضها الله تعالى على الإنسان، وأثابه خمسين صلاة في كل يوم وليلة.

الصلاة في حياة الإنسان بمثابة غذاء صالح للقلوب، وزاد نافع للنفوس، فكما أن الأجسام تحتاج إلى غذاء وطعام وشراب، كذلك تحتاج الأرواح إلى غذائها، وهذه الأغذية تتلخص في الذكر والدعاء، والإخلاص والتوكل والشكر والصبر والتقوى، أضف إلى ذلك الصلوات الخمس والصلوات النافلة فإن الإنسان يرتاح فيها ما لا يرتاح في أي شيئ آخر، وقد أشار الله تعالي: "أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي" [سورة طه، الآية: ١٤]، وقال: "أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" [سورة الرعد، الآية: ٢٨] وقد ذكر الإمام السيد

أبـو الحسـن علـي الحسـني النـدوي رحمـه الله تعـالى عـن الأئمـة الأعلام قائلاً:

"كـان علـى هـذه السـيرة أئمـة الإسـلام، وأعـلام هـذه الأمـة، وقادة المسلمين في كل عصر، وقد حكي عن شيخ الإسلام ابـن تيميـة أنه إذا أشكلت عليه آية أو التوى عليه علم، عمـد إلى بعـض المسـاجد المهجـورة، فقـام يصـلي فيعفـر وجهـه بـالتراب، ويطيـل السـجود، ويقـول: يـا معلـم إبـراهيم علمـني، وكـان شـديد الابتهـال، عظـيم التـذلل لله تعـالى، يفتخـر بأنـه سـائل مسـتجد، عريـق في الشـحاذة، ورثها أبا عن جد، قد سمع ينشد في بعض مناجاته ودعواته:

أنـــا المكـــدي أنـــا المكـــدي
هكـــذا كـــان أبـــي وجـــدي"[1]

---

[1] الأركان الأربعة: ٨٠، نقلا من كتاب مدار ج السالكين ج/١، ص: ٢٩٦، طبعة المنار، طبع دار القلم، الكويت ١٣٨٧هـ.

خذ من أموالهم صدقة تطهرهم

الإسلام دين الصدقة والإنفاق، والإسلام دين النماء والعطاء، والإسلام دين الجود والسخاء، والإسلام إعطاء كل ذي حق حقه، إنه يخالف الشح والبخل والحرص والطمع في معنى الكلمة، ويستوفي ضرورات الفقراء والمساكين، فالزكاة في الإسلام عمود ثالث من أعمدة الإسلام، والزكاة عبادة مالية، وهي إنفاق جزء من المال في سبيل الله عزوجل لتطهير النفس، واستكمال حاجيات المحتاجين، الواقع أن الزكاة ليست ضريبةً من الضرائب، وجبايةً من الجبايات، بل غرس لعواطف الرأفة والحنان، وتوطيد علاقات التعارف والألفة، قال الله تعالى: "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" [سورة التوبة، الآية: ١٠٣].

كان الإنفاق في سبيل الله تعالى مشروعا منذ قديم الزمان، وكان الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه يحثون الناس على الإنفاق وبذل المال، فكان أتباعهم ينفقون أموالهم، وينالون بذلك رضا الله تعالى، وقد ذكر القرآن الكريم الصلاة والزكاة مقرونة تعظيما لشأنها، وتنويها بذكرها، وترغيبا في أدائها، وترهيبًا من تركها، فقال: وأقيموا

الصلاة وآتوا الزكاة، وقد قال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه زمن الردة حينما كان يمرق الناس من الدين، وينكرون الزكاة، فقال بكل تأكيد: والله لأقاتلن من فرَق بين الصلاة والزكاة (رواه البخاري: ١٤٠٠)، وقد أوعد الله تعالى الرجال والنساء الذين يكنزون أموالهم، ولا ينفقونها في سبيل الله بالعذاب الأليم، فهذه الكنوز المكتنزة، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والدراهم والدنانير كلها تشعل بالنار يوم القيامة، ثم تحرق بها جباه الناس وجنوبهم وظهورهم، فإن تخصيص هذه الأعضاء في الإحراق دليل على أنها كانت تظهر عليها علامات الإنكار وعدم الإنفاق وقت نجدة الملهوف، وسؤال المسكين، فهي أحق بأن تعذب من الله تعالى بالنار، وقد ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من آتاه الله مالا، فلم يؤده زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان[1]، يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه يعني شدقيه، فيقول: أنا مالك، أنا كنزك[2].

وردت كلمة الزكاة في الآيات المكية، فكان المراد بهذه الزكاة مجرد إنفاق في سبيل الله تعالى، أما فرضيتها فكانت بعد الهجرة، واختلفت الآراء في تحديد السنة لفرض الزكاة، فقال بعض العلماء في السنة الخامسة نظرًا إلى حديث ضمام بن ثعلبة، ووفد عبد القيس، فعلم منه أن فرضيتها كانت بعد السنة الخامسة، وكما

---

[1] نكتة سوداء فوق عين الحية.

[2] رقم الحديث: ١٢٠٣.

أشار العلماء إلى السنة التاسعة أمثال أبي جعفر الطبري الذي قال: ثم دخلت سنة تسع، وفي هذه السنة فرضت الصدقات، وفرق فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عماله على الصدقات[1]، على كل فإن الزكاة فريضة محكمة، وسنة متبعة، وهي تسل وتخرج مرض البخل من أصول النفوس الإنسانية، وتطهر الأموال المودعة، والزروع والثمار والبهائم والذهب والفضة، وأموال التجارات، أما مصارف الزكاة فهي كما وردت في آية سورة التوبة: "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" [الآية: ٦٠].

وهناك بشارات ووعود كريمة من الله تعالى على إنفاق الأموال في سبيل الله تعالى، وخاصة على أداء الزكاة، ومن أوفى بعهده من الله، نذكر هناك شواهد ذلك من القرآن والسنة قال تعالى: "مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" [سورة البقرة، الآية: ٢٦١]، وقد روي الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما تصدق أحد بصدقة من طيب – ولا يقبل الله إلا الطيب – إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فتربو في كف الرحمن، حتى تكون أعظم من الجبل، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله.

---

[1] تاريخ الطبري الجزء الرابع، المجلد الأول، مطبعة بريك ليدن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بينما رجل في فلاة من الأرض، فسمع صوتًا في سحابة: أسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرة، فإذا شرجة من تلك الشراج، وقد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقة، يحول الماء بمسحاته، فقال: يا عبد الله! ما اسمك؟ قال: فلان – للاسم الذي سمع في السحابة، فقال: يا عبد الله! لم سألتني عن اسمي؟ قال: سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه، يقول: أسق حديقة فلان، باسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذا قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعياله ثلثة وأرد فيه ثلثه[1].

فإنفاق الأموال في سبيل الله دليل على الإيمان، وعلامة للإسلام، فالمسلم لا يكون مسلما حقيقيا إلا بإنفاق أمواله في سبيل الله تعالى، وليس معنى الإنفاق هنا فقط إخراج أموال الزكاة، فإن أداء ها فريضة، بل المراد أن هناك حقا في الأموال سوى الزكاة – فإن كثيرًا من أعمال الإسلام لا تقام على أرض الواقع إلا بالمساعدات العامة، والإنفاق الزائد علي الزكاة – فيجب على المسلمين أن ينفقوا أموالهم وما أعطاهم الله تعالي من نعم وآلاء جسيمة في سبيل الله تعالى – لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن في المال لحقا سوى الزكاة[2].

---

[1] رواه مسلم.

[2] عن فاطمة بنت قيس، رواه الدار قطني.

شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن

شهر رمضان فرصة ذهبية من الله تعالى لإصلاح الأعمال، ومراجعة الحساب، وشهر رمضان محطة مادية لتغذية الأرواح والنفوس، وشهر رمضان مدرسة ربانية لتهذيب الأخلاق، وتجديد الإيمان، ففي رمضان تهجد وتراويح، وذكر وتسبيح، وفي رمضان تلاوة وصلوات، وجود وصدقات، وأذكا ودعوات، وضراعة وابتهالات – فهنيئا لمن نال رمضان، وغفر له، وسحقا لمن لم ينل حظه من رمضان – قال تعالى: "وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ" [سورة المطففين، الآية: ٢٦].

لكل شيء غرض وحكمة، ولكل أمر مقاصد وأسرار، فالصلاة لها حكمة، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة لها حكمة، وهي إزالة الفقر والإفلاس من المجتمع الإنساني، والحج والعمرة لهما حكمة ومصلحة، وهي رؤية منافع وفوائد لله في البقاع المقدسة ليشهدوا منافع لهم، وإذا لخصنا الأسرار والحكم التي تكمن في رمضان عرفنا أنها هي التقوى، والتقوى ليست أمرًا هينًا، وهي ملاك الحسنات، وأساس الأعمال والأفعال والعبادات، والتقوى هي اختيار التوحيد دون الشرك، واختيار السنة دون البدعة،

والتقوى اختيار الحلال البين دون المشتبهات، فلا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به، حذرًا لما به بأس، ومن أسرار الصيام في رمضان التخلق بأخلاق الله، والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات، وحبس النفس عن الشهوات، فكلما انهمك الإنسان في الشهوات انحط إلى أسفل سافلين، وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين – قال الله تعالى: "قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" [سورة الشمس، الآيتان: ٩–١٠].

الصوم يكسر النفس الأمارة بالسوء، ويكبح جماحها، والصوم يضيِّق مجاري الطعام والشراب، وهي مجاري الشيطان، الصوم يذكِّر الصائمين بالفقراء والمساكين، فإنهم يجوعون ويظماؤن ويعطشون، فحينما يصوم الأغنياء والمترفون، فيشعرون بهذه الحاجة الشديدة، ويشاركون هموم الفقراء والمساكين، والصوم ليس عبارةً عن الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع والجماع، بل هو عبارة عن غض البصر، وحفظ اللسان، وكف السمع، و كف الجوارح وأعضاء البدن عن المحرمات، فصوم القلب إفراغه من شركيات، وعقائد باطلة، وساوس شيطانية، وخطرات سيئة، فصوم القلب عن الحسد والعجب والكبر، وصوم اللسان هو إمساكه عن اللغو واللهو، والكذب والغيبة، والنميمة والسخرية، وصوم العين هو إغضاؤها عن الحرام، وصوم الأذن هو إبعادها عن سماع الفحش والسيئات، وصوم البطن اجتنابه عن الحرام فلا تدخل لقمة مشتبهة في البطن – وقد

قال صلى الله عليه وسلم: من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه[1].

لرمضان ثلاث عشرات، فالأيام العشرة الأولى من رمضان هي عشرة الرحمة، وكلنا فقراء ومحتاجون إلى رحمة الله تعالى، ولولا رحمة الله ما عشنا، ولولا رحمة الله ما حيينا، والرحمة صفة عظيمة من صفات الله، والرحمن والرحيم من أعظم أسمائه، فالله الرحمن يرحم العباد كلهم فأسقهم وصالحهم، وطيبهم وخبيثهم، لكن الرحيم هو خاص بالمؤمنين، فمن رحمة الله تعالى أنه قدر لنا شهر رمضان لمغفرة الذنوب، ومن رحمة الله تعالى أنه جعل الصيام جنة ما لم يخرقها الإنسان، ومن رحمة الله تعالى أنه جعل للصيام إفطارًا وتسحرًا، وإلا كان كلا على الناس، ومن باب الرحمة في رمضان أنه شهر القرآن، ومن باب الرحمة في رمضان أنه شهر الدعاء، والشهر والصبر والمساواة، ومن رحمة الله تعالى في شهر رمضان أنه يعطي لكل عمل جزائه حسب سنته، إلا الصوم فإن الله يجزي به، فمن رحمته تعالى أنه جعل الصيام أيامًا معدودات، ولم يجعل للسنة الكاملة، وكذلك إذا كان هناك مريض أو على سفر فعدة من أيام أخر، هذا أيضا من رحمته، "يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" [سورة البقرة، الآية: ١٨٥]، وقال صلى الله عليه وسلم: الصيام والقرآن يشفعان للعبد

---

[1] رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يـوم القيامـة، يقـول الصـيام: أي رب! منعتـه الطعـام والشـراب فشـفعني فيـه، ويقـول القـرآن: منعتـه النـوم بالليـل فشـفعني فيـه، قال: فيشفعان (عبد الله بن عمرو، صحيح الجامع).

تتصف العشرة الثانية من شـهر رمضـان أنهـا عشـرة المغفـرة، فـإن الله يغفـر النـاس خاصـتهم وعـامتهم، وصـغارهم وكبـارهم ورجالهم ونساء هم، وفقراء هم وأغنياءهم، فلا يرجع سائل مـن هذا الباب خائبًا وخاسرًا، ولا يخسر دنياه وآخرتـه، وقـد اجتمعـت في هـذه العشـرة أعمـال المغفـرة مـن الله، وهـي الصـيام، وصـلاة التراويـح وتفطـير الصـائمين، وتخفيـف أعبـاء العبيـد والأجـراء، وإنفـاق الأمـوال في سـبيل الله، وإكمـال حـوائج المحتـاجين والملهوفين، قـال صـلى الله عليـه وسـلم: مـن صـام رمضـان إيمانـا واحتسابا غفر له مـا تقـدم مـن ذنبـه، وقال: مـن قـام رمضـان إيمانـا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه[1]، وأما حديث سلمان الفارسي الـذي رواه ابـن خزيمـة في صـحيحه فإنـه يتحـدث عـن جـزاء هـذه الأعمال في صورة مغفرة الذنوب والسيئات.

تتميز العشرة الأخيرة بأنها عشرة نزول القرآن الكريم، بحيث إن القرآن الكريم نزل دفعة واحدة في الليلة السـابعة والعشـرين مـن هـذا الشـهر إلى السـماء الـدنيا، ثـم نـزل رويـدًا رويـدًا في ثـلاث وعشرين سنة على رسول الله صلى الله عليـه وسـلم، فهـذا الشـهر شهر القرآن نـزولاً وتـلاوةً وفهمًـا وتفسـيرًا وعمـلاً ودعـوةً، وكـان

---

[1] صحيح البخاري.

رسول الله صلى الله عليه وسلم يكمل دوراته مع جبرئيل، وقد أكمل مرتين في السنة التي توفي فيها، وقد قال صلى الله عليه وسلم: إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض، فتعلموا من مأدبته، وقال صلى الله عليه وسلم: مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها، وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، ليس لها ريح وطعمها مر[1].

هذه العشرة الأخيرة من شهر رمضان تتميز عن بقية العشرتين بالاعتكاف فيها، لأن النبي صلى الله عليه وسلم اعكتف فيها، وشرع هذا العمال لعامة المسلمين، والاعتكاف هو لزوم المسجد لطاعة الله للتفرغ للعبادة، واتفق أهل العلم على أن الاعتكاف مسنون، وهناك اعتكاف واجب وهو اعتكاف النذر، واعتكاف مستحب لساعة أو ساعتين في كل يوم وليلة، وما ترك النبي صلى الله عليه وسلم الاعتكاف منذ قدم المدينة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يضرب له خباء مثل هيئة الخيمة، فيمكث فيه غير أوقات الصلاة، حتى تتم الخلوة بصورة واقعية، وكان لا يخرج من المسجد إلا لبول أو غائط، ويؤتى له طعامه وشرابه في معتكفه، ولا يعود مريضًا خلال اعتكافه، و لا يشهد جنازة، ومن مقاصد الاعتكاف الخلوة بالله، والانقطاع عن الناس، وإصلاح

---

[1] رواه النسائي فضائل القرآن.

القلب وحفظ الصيام من الأمور المحظورة.

إحياء ليلة القدر من أعمال هذه العشرة، قال تعالى في الاعتكاف: "وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ" [سورة البقرة، الآية: ١٨٧] وقال وهو يخاطب سيدنا إبراهيم وإسماعيل: "أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ" [سورة البقرة، الآية: ١٢٥] وقد روي ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في المعتكف: هو يعكف الذنوب، أي يمنع الذنوب، ويجري له من الحسنات كعامل الحسنات كلها[1].

إن ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وهي ليلة مباركة سعيدة في شهر رمضان، فإذا وفق أحد للعبادة في هذه الليلة فكأنما عبد أكثر من ثمانين سنة، والقدر له ثلاث معان: أولا هو الشرف والعظمة وعلو الشأن، فمن أحيا هذه الليلة فإنه كسب مكانة زلفى عند الله، ومعنى القدر الثاني: الحكم والتقدير، تقدر في هذه الليلة الآجال والأرزاق وحوادث العالم كلها، وتدفع إلى الملائكة من إسرافيل وميكائيل وعزرائيل وجبرئيل إلى السنة القابلة، ومعنى القدر أيضا: التضييق هذه الليلة تضيق بالملائكة وهم ينتشرون في كل بقعة من بقاع العالم، ينظرون إلى المصلين والذاكرين والعابدين والنائمين، "تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ" [سورة القدر،

---

[1] سنن ابن ماجه، رقم الحديث: ١٧١٨.

الآيتان: ٤—٥]، وقد قال صلى الله عليه وسلم: تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من شهر رمضان، وقال صلى الله عليه وسلم عن جزاء العبادة في هذه الليلة: من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه[١]، وقد سألت أم المؤمنين: يا رسول الله! إن وافقت ليلة القدر، بم أدعو؟ قال: قولي: اللهم إنك عفو كريم، تحب العفو، فاعف عني[٢] وكان هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في العشرة الأخيرة من شهر رمضان أنه إذا دخل العشر أحيا ليله وأيقظ أهله وشد مئزره[٣].

---

[١] صحيح البخاري كتاب الصوم.

[٢] رواه أحمد والنسائي وابن ماجه.

[٣] صحيح مسلم.

الحج: العج والثج

الإسلام دين التضحية والفداء، دين الخضوع والاستسلام، دين الحب والغرام، دين العشق والهيام، دين العقل والقلب، دين الفكر والعاطفة، دين الطاعة والانقياد، دين الإيثار والاستماتة في سبيل الله تعالى، وهو دين باع فيه المرء نفسه وماله، واشتراهما الله تعالى بأن له الجنة، قال الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ" [سورة التوبة، الآية: ١١١]، وهذا المعنى يتجلى بكل جلاء في عبادة الحج وشعيرة تقديم الأضاحي.

الحج عبادة ليست كعامة العبادات، فهي عبادة مزدوجة، الصلاة عبادة بدنية، والصوم عبادة جسمية، والزكاة عبادة مالية، فالحاج حينما يخرج في سبيل الله تعالى فإنه يقدم مُهَجه وأرواحه، ويفدي بماله ومتاعه، ويبذل أوقاته وينفق ثروته في سبيل الله تعالى، فهو عاشق هيمان، ومحب نشوان، يغيِّر شارته ولباسه، ويكتفي بردائين أبيضين، ويلبي بكلمة ملؤها حب وفداء، وإخلاص وتوحيد، وهي لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك

لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

ذكر الله تعالى في القرآن غاية العبادات المشروعة، فالصلاة غايتها النهي عن الفحشاء والمنكر، قال الله تعالى: "إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ" [سورة العنكبوت، الآية: ٤٥] والزكاة غايتها تطهير النفوس والأموال، قال الله تعالى: "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا" [سورة التوبة، الآية: ١٠٣] والصوم غايته إنشاء عاطفة التقوى، قال تعالى: "لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" [سورة البقرة، الآية: ١٨٣]، وإن عبادة الحج لا تحمل فائدة أو فائدتين، بل إنها تحمل فوائد متنوعة ومنافع متعددة، قال الله تعالى: "لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ" [سورة الحج، الآية: ٢٨] وهذه المنافع تتجلى في صورة البركات والخيرات، كما روى الإمام البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه[١]، وقال: إن الحج يهدم ما كان قبله[٢]، فالحاج يخرج من بيته، وهو لا يتمنى إلا مغفرة الذنوب والدخول في الجنة والزحزحة عن النار، وهذه الجائزة تحصل له من عبادة الحج.

تبتدئ أشهر الحج منذ شوال، وتنتهي مناسكه في خمسة أيام من شهر ذي الحجة الحرام، وهي أيام معلومات، فالحاج يقضي

---

[١] رواه البخاري: كتاب الحج: ١٤٤٩.

[٢] الجمع بين الصحيحين: ٢٩٢٤.

هذه المدة في حب وهيام، وعشق وغرام، بل رحلة الحج كلها مثال رفيع لهذا العمل الجليل، فلباس الإحرام، والطواف لبيت الله، ثم السعي بين الصفا والمروة، واستلام الحجر الأسود، ووقوف عرفة وإقامة منى، ورمي الجمرات وطواف الإفاضة وغير ذلك ليس إلا دليلاً على الفداء والتضحية، والخضوع والاستسلام، هذا ما يعبر عنه الحديث النبوي الشريف: حينما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم أي الحج أفضل؟ قال: العج والثج، أي الحج رفع هتافات التلبية وإراقة الدماء الزكية في سبيل الله تعالى، وقال أيضاً، الحاج الشعث التفِل، أي أن الحاج إذا كان أشعث أغبر كان أحب إلى الله تعالى[1].

جعل الله تعالى الكعبة البيت الحرام قياماً للناس، وهي صلاح أمر دينهم ودنياهم، فتقوي عبادة الحج هذه العاطفة الجياشة، كما تمهد الطريق إلى التوادد والتعاطف، فتتجلى منه الوحدة الإسلامية، وتذوب إمامه تلك العنصريات والقوميات التي كانت مبعث فرقة وانقسام بين الناس، فالحج يقدم نماذج كثيرة للآخرة، فحينما يلبس الحاج لباس الإحرام، فإنه يجدِّد الكفن وقت الموت، وحينما يودع الأهل والأقارب، فهذا يجدد مفارقة الحياة الدنيا وهلم جراً.

والحج ذكرى لتضحيات سيدنا إبراهيم عليه السلام التي قام بها ابتغاء وجه الله تعالى: (١) استقامته على التوحيد، (٢) ترك

---

[1] جامع الترمذي، رقم الحديث: ٤٤٠.

زوجته وولده الرضيع في واد غير ذي زرع، (٣) تقديم ابنه للذبح، وإن سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يتلكأ في تقديم هذه التضحيات فجعله الله تعالى إماماً، وخلَّد ذكراه إلى يوم القيامة بالحج وتقديم الأضاحي، قال الله تعالى: "وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إماماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ" [سورة البقرة، الآية: ١٢٤].

إن عبادة الحج لن تتم حتى يكون زاد الحاج مخافة الله تعالى والدعاء منه، فهما غذاءان للإنسان، يغذي بهما روحه وطبيعته الباطنة، لأن تقوى الله تعالى تسدِّد وجهة الحج إلى الله تعالى، وكلما لقي فتى أو شاب النبي صلى الله عليه وسلم وهو يريد الحج قال: يا غلام! زوَّدك الله التقوى، ووجَّهك في الخير وكفاك الهم[١]، وقال الله تعالى: "وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يا أوْلِى الأَلْبَابِ" [سورة البقرة، الآية: ١٩٧]، وإذا كانت التقوى في هذه الرحلة مفقودة فكانت الرحلة مصداقاً لحديث أنس بن مالك رضي الله عنه: يأتي على الناس زمان يحج فيه أغنياء الناس للنزهة، وأوساطهم للتجارة، وقراؤهم للرياء والسمعة وفقراؤهم للمسألة[٢]، وقد ورد في بعض الأحاديث أن رجلاً أشعث أغبر سافر إلى بيت الله الحرام، وكان ملبسه ومطعمه حرام وغذي

---

[١] المعجم الكبير: ١٣١٥١.

[٢] كنز العمال: ١٢٣٦٢.

بالحرام، فأنى يستجاب له[1].

إن الحج فريضة إسلامية، من تركها فقد كفر، وليس على الله أن يموت يهودياً أو نصرانياً، فالرجل الذي أدى هذه الفريضة كان موضع غبطة وسعادة، والرجل الذي يتكاسل في أدائها كان جديراً بالنبوة الصادقة – لا قدر الله – وفق الله لأداء هذه الفريضة بزاد من التقوى والدعاء منه.

---

[1] السنن الكبرى للبيهقي: ٦٦٢١.

وتزودوا ،فإن خير الزاد التقوى

الإسلام دين الخضوع والاستسلام، وفريضة الحج أعظم مثال له، وهي عبادة بدنية ومالية، يفدي فيها المسلم مُهجه وأرواحه إلى الله تعالى، ويُبدي فيها شوقه وابتهاجه، ويتظاهر بالعواطف الجياشة الإيمانية، كأن روحه قد وصلت إلى مقرها، ونالت بغيتها، ولا شك أن وكر المسلم الحقيقي هو الديار المقدسة، التي يمتلئ قلب المؤمن بمجرد ذكرها وسماعها، قال الله تعالى: "ذلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ" [سورة الحج، الآية: ٣٢].

يأخذ الإنسان زاداً وراحلة إذا خرج لإنجاز مهمة أو نيل غاية، ولا يقصر جهداً في تسهيل برامجه، كذلك رحلة الحج تتطلب إمكانيات ووسائل تبلغ بالإنسان إلى بيت الله الحرام، لكن أكبر زاد هو الزاد الروحي الذي يتكفل بالإنسان في رحلته، ويتمتع به الحاج في غدواته وروحاته، وهو مراقبة الله تعالى وتقواه والخشية له، وذلك ما صرح به القرآن الكريم: "وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يأُوْلِي الأَلْبَابِ" [سورة البقرة، الآية: ١٩٧]، وقال صلى الله عليه وسلم وهو يوصي غلامًا يريد الحج: يا

غلام! زودك الله التقوى، ووجّهك في الخير وكفاك الهم، ولما رجع من حجه قال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا غلام! تقبل الله حجك وكفَّر ذنبك وأخلف نفقتك[١].

دراسة خاطفة لمناسك الحج تدل دلالة واضحة أن (التقوى) إذا لم تحالف الحاج في سفره كان سفره سفراً ترفيهيا فقط، لا حجاً مبروراً، وكان سعيه سعياً ممتعاً، لا سعياً مشكوراً، وكانت تجارته تجارةً خاسرةً لا تجارةً رابحةً، رجل يخرج في سفر الحج، ولم يكن سفره إلا من مال حرام، فحينما لبى تلبية الحج: لبيك اللهم لبيك جاء نداء من السماء: لا لبيك ولا سعديك[٢]، وإذا وصل إلى بيت الله، وأخذ بالملتزم يدعو ويهتف بالدعاء رفضت دعوته وردت يده خائبةً خاسرةً، ذلك لأن مطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، فأنى يستجب له[٣].

يجتمع الناس في المطاف والمسعى من كل حدب وصوب، وهم رجال وشباب وأطفال حتى نساء مكشوفات وجوههن شرعاً، يتضايق المكان من تزاحم المناكب، وكثرة العُباد والزائرين، ويحتمل حدوث الشقاق بينهم، فيؤدي ذلك إلى خصومة أو نزاع وجدال، أو يقع نظر الإنسان على الأجنبية فيرتكب حراماً، ويتوغل في المعاصي، هنا تتجلى التقوى فتمنع

---

[١] أخرجه ابن السني والطبراني.

[٢] مجمع الزوائد: ٢٠٩/٣، باب في الحج والعمرة.

[٣] رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

الحاج من اقتراف ذنب أو مخالفة أمر من أوامر الله، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن[1].

أبطل الإسلام بصفة التقوى كل ما ورثه الناس من معتقدات في الزمن الجاهلي: كان العرب ينضحون دماء الأضاحي على آلهتهم وعلى جدران الكعبة، فاستأصل الله شأفته بقوله: "لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا وَلَـكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ" [سورة الحج، الآية: ٣٧]، وكان أهل الجاهلية يتحرجون من دخول البيوت من أبوابها بعد لبس الإحرام ونية الحج، فأزال الله تعالى ذلك بقوله: "وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا" [سورة البقرة، الآية: ١٨٩]، وكان الناس يطوفون ببيت الله عُراةً، وكانوا يقولون: لا نطوف في ملابس عصينا فيها، فألغى الله هذا القانون الجائر بقوله: "خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَكُلِّ مَسْجِدٍ" [سورة الأعراف، الآية: ٣١] وكان العرب يستحيون من أن يخرجوا إلى الحج بالزاد والطعام، ويقولون: نحن ضيوف الله، ولا يتحرجون من التسول والكدية، فنهاهم الله تعالى عن ذلك: "وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يأُوْلِى الأَلْبَابِ" [سورة البقرة، الآية: ١٩٧].

الحج كله طاعة وامتثال لأمر الله وسعي وإجابة لنداء الله،

---

[1] رواه الترمذي، وقال حديث حسن.

فالحاج حينما ينزل ويرتحل ويمكث وينتقل، ويطوف ويسعى، ويؤدي مناسك الحج يحقق معنى التقوى والخشية لله تعالى، لا يخضع لإرادته ولا يجري وراء شهوته، وقد أعدَّ الله له ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة). فبشرى للحجاج التي يؤدون مناسك الحج بإخلاص النية وطهارة السريرة، وطوبى لضيوف الرحمن الذين تحلى حجهم بالتقوى والإخلاص.

ملة أبيكم إبراهيم

الإسلام دين الملة الإبراهيمية، دين الحنيفية السمحة، دين المحجة البيضاء ليلها كنهارها، دين جميع الأنبياء والرسل، دين اليهود والنصارى، دين الصابئة والمشركين، دين لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه، فالدعوة إلى الدين الحنيف دعوة إلى الإسلام، قال الله تعالى: "وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً" [سورة النساء، الآية: ١٢٥].

إن شخصية إبراهيم عليه السلام هي الشخصية الجامعة التي ينتسب إليها جميع الملل والنحل: اليهود والنصارى وجماعة المشركين والصابئين، ولا شك أنه وُلد في العراق في بيت آزر، وكان آزر يصنع الأصنام ويبيعها ويعبدها، فقضى إبراهيم عليه السلام حياةً حافلةً بتضحيات جسام، حتى اتخذه الله خليلاً، وقد رزق الله له ولدين صالحين نجيبين: إسماعيل وإسحاق، فانتشرت ذريته ونسله، فكان سمياً لاسمه أي: كثير الذرية.

بدأ حياته من دعوة أبيه إلى التوحيد ثم دعوة قومه، واستدرج فيها، وجرت محاجته مع الملك نمرود، فبُهت الذي كفر، وما كان له بد إلا أن يلقي إبراهيم في النار، فاستقام إبراهيم عليه السلام على

درب الحب الإلهي، ورضي بأن يكون وقوداً للنار، لكن الله أبى إلا أن يبقى إبراهيم صحيحاً معافىً في جسده، قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وأما قوم إبراهيم فإنهم كانوا معذبين من الله على كفران نعمة الله (وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ).

هاجر إبراهيم من وطنه، وكان معه زوجه وابن أخيه لوط إلى كنعان، ولما عم الجدب والقحط في كنعان انتقل إلى مصر، وأكرم من بعض فراعنة مصر بجوائز كثيرة، فيها زوجته هاجر، ثم ولد له إسماعيل من هاجر، بعد انتظار شديد، فأمره الله تعالى بأن يتركهما في واد غير ذي زرع، فترك، ودعا لهما دعوات، فجعل الله ببركتها هذه الأرض الجافة خضراء، ثم ألقاه الله في بلاء آخر، وهو ذبح إسماعيل، فلم يتلكأ ولم يتردد، بل نفذ ما أمره الله تعالى، حتى جاء من الله نداءٌ: يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَآ إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ، وأخيراً ألهمه الله تعالى فكرة رفع قواعد البيت في واد غير ذي زرع، فاشتغل ببنائه، ورفع قواعد البيت، ودعا خلال بنائه ثلاث دعوات: (١) رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢) رَبَّنَا وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ. استجاب الله دعاءه. فكان من نتيجته أن عمله نال الخلود والبقاء والاستمرارية إلى يوم القيامة، وبدأت سلسلة الحج والزيارة، وكانت بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال: أنا ثمرة دعاء إبراهيم عليه السلام.

إن الشريعة التي أتى بها إبراهيم عليه السلام تُعرف بملة إبراهيم، وقد رغب الله تعالى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته في اتباع شريعته، فما هذه الملة الإبراهيمية؟ إذا دققنا النظر عرفنا أن الملة لغة: الطريقة والسنة، لكن دراسة القرآن والحديث تثبت أنها هي الدين والشريعة، أما عناصر ملة إبراهيم فهي التوحيد والرسالة والآخرة والصلاة والأضحية، والحج والختان، وكل إنسان يحمل وزره، وقد تكلم الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي حول هذا فقال: الملة تنقسم إلى قسمين: الشعائر والشرائع، فمن شعائر الملة الإبراهيمية: "حج بيت الله الحرام واستقباله في الصلوات، والغسل من الجنابة والاختتان، وسائر خصال الفطرة، وتحريم الأشهر الحرم وتعظيم المسجد الحرام، وتحريم المحرمات النسبية والرضاعية والذبح في الحلق والنحر في اللبة، والتقرب بالذبح والنحر إلى الله تعالى لا سيما في أيام الحج، لكن شرائع الملة الإبراهيمية هي الوضوء والصلاة والصوم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والصدقة على اليتامى والمساكين، والإعانة على نوائب الحق وصلة الأرحام، وتحريم القتل والسرقة والزنا والربا والغصب"[1].

قد وصَّى إبراهيم عليه السلام بهذه الملة بنيه، كما وصى يعقوب أولاده وأحفاده بها من بعد، لكن يا لقساوة قلوب اليهود اعتقدوا أن اليهودية هي الإبراهيمية وظنوا ظنوناً واهيةً ركيكةً، حتى ضلوا

---

[1] الفوز الكبير: ٢٢ – ٢٣.

وأضلوا، قال الله تعالى: وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. كذلك اعتقد النصارى اعتقادات باطلة عن الله، وتركوا التوحيد وتأثروا بالشرك ونسبوه إلى ملة إبراهيم، مع أن ملة إبراهيم بريئة من هذه الخرافات براءة الذئب من دم يوسف، قال الله تعالى: "وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً" [سورة النساء، الآية: ١٧١].

ومع بعثة النبي صلى الله عليه وسلم شرع الله له ولأتباعه ملة إبراهيم، فروح الإسلام وملة إبراهيم واحدة، يركز الإسلام على الانقياد والطاعة، وتركز ملة إبراهيم على الانقطاع الكامل إلى الله تعالى، والإسلام يحث على العبادة، وملة إبراهيم ترغب في الاصطباغ بصبغة الله، والإسلام ينفي الشرك والكفر، وملة إبراهيم ترفض رفضاً باتاً كل ما سوى الله، فكان محمد صلى الله عليه وسلم مجدد الملة الإبراهيمية، نفض عن ملة إبراهيم الغبار الذي تراكم عليها، فجعل صورتها صافيةً نقيةً مشرقةً، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بُعثت بالحنيفية السمحة. قال الله تعالى: "مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُواْ الصَّلواَةَ وَآتُواْ الزَّكَواةَ وَاعْتَصِمُواْ بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ" [سورة الحج، الآية: ٧٨].

الإسلام دين الغلبة والانتصار

الإسلام هو الحلُّ

"الإسلام هو الحلُّ" و"الإسلام منهج الحياة" و"القرآن دستور الحياة" جُمل تتردد على ألسنة العلماء والخطباء، ويسمع صداها عامة الناس، فيهتفون بمثل هذه الهتافات، وكفاهم شرفاً وفخراً: لكن الإسلام ليس قولاً فحسب، بل هو عمل وتطبيق وصورة عملية للدين الإلهي، وقد ثبت ذلك من حديث جبرئيل عليه السلام: الإسلام أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان[1]، فلا يتحقق معنى "الإسلام هو الحل إلا بالصورة العملية الصادقة.

إن دراية معنى الإسلام (وهو الانقياد التام والطاعة الكاملة) تحل المشكلات، وتفك العويصات، فإذا أسلم المرء نفسه إلى الله لا إلى النفس ولا إلى الشيطان، في سفره وحضره، وفي حله وترحاله، وفي منشطه ومكرهه، وهو يظن أن كل شيئ في الكون يسبِّح لله عز وجل، وكان مخلصاً في مبتغاه، وكان نصر الله حليفه، بل كان الله له.

---

[1] رواه مسلم.

الإسلام الحقيقي يحمل تأثيراً كبيراً، ويملك جاذبيةً وقوةً، فإذا نطق الكافر بكلمة الإسلام طهر من جميع الأثام، وانتقل من عالم إلى عالم آخر، وأكرم برعب إيماني وهيبة ربانية، تتلاشى أمامها القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وتذوب فيها الإعدادات الهائلة من الأسلحة المدمرة، والجنود المجندة، قال صلى الله عليه وسلم: أعطيتُ خمسًا لم يعطهن أحد قبلي، منها: نُصرت بالرعب مسيرة شهر[1]. وقال الله تعالى: "فَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ" [سورة الأنفال، الآية: ٦٦].

لا شك أن المسلمين اليوم محاطون بأزمات متنوعة على مستويات مختلفة، تُسلب حقوقهم، وتغتصب ممتلكاتهم، وتحتل أراضيهم، وتُداس كراماتهم، هذا ليس في بلد واحد، بل في أكثر البلدان، فيخيَّل إلى ضعاف الإيمان أن المسلمين لا يكونون مرفوعي الرأس، كلا، لا والله، إن مستقبل الإسلام كالشمس في رابعة النهار، والمسلمون سيتنفسون الصعداء بهدوء وطمأنينة بإذن الله تعالي: "وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" [سورة الروم، الآية: ٥]. وإن انتكاسهم وفشلهم في معترك الحياة يرجع إلى ضعفهم في تمثيل الإسلام وعدم التظاهر بشعائره.

هنا بشارات في التاريخ الإسلامي تدل على أن المستقبل للإسلام، وهو الحل الوحيد للخروج من اللأزما ت:

---

[1] متفق عليه.

(١) ومعلوم أن سراقة بن مالك حينما يطارد النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي الله عنه وقت الهجرة، فكان يعثر فرسه كلما همَّ متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا سراقة! كيف بك وسواري كسرى؟ يقول أصحاب المغازي والسير: "والله وحده يعلم ما هي الخواطر التي دارت في رأس سراقة حول هذا العرض العجيب، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان واثقاً من أن هذا الحق لا بد أن ينتصر على هذا الباطل." وقد تحققت هذه النبوءة في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأيقن سراقة بأن ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم حق، وسيتحقق رويداً رويداً كل ما سجلته صفحات الحديث الشريف على صاحبها ألف ألف تحية وسلام، لأن الإسلام هو الحل.

(٢) خرجت حليمة السعدية في طلب الرضعاء، فبحثت عنهم كثيراً، فلم تجد إلا محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم) الرضيع اليتيم، ففي أول وهلة تركته لأنه يتيم، لكن حينما لم تجد سواه، اضطرت إلى أخذها، وما إن وضعت هذا الصبي في حجرها حتى رأت البركة جليةً في كل شيئ، وقالت لها صديقاتها: يا حليمة! لقد أخذت نسمةً مباركةً.

هكذا شأن الإسلام إذا دخل في شيئ غيَّره أيما تغيير، لكن الناس اليوم يعتبرونه أفيون الحياة، أو شيئا لا يعبأ به، رغم أنهم إذا التزموا بتعاليمه وتمسكوا بآدابه ورأوا انقلاباً هائلاً في كل شيئ،

وشعروا بتغيير جذري في كل أمر، كما كان الأمر مع حليمة السعدية، فإذا رجع الناس إلى أصلهم، وعادوا إلى مركزهم زالت المشاكل والصعوبات، وانكمشت العراقيل والعقبات.

الواقع أن الدين عند الله الإسلام، وهو يحمل حلاً شافياً لجميع المشكلات، فلم يكن عقيمًا في الماضي، ولا الآن، ولم ينهزم في الماضي، ولن ينهزم إن شاء الله في المستقبل، لأنه حسب تعبير أديب وداعية " رصيد الفطرة، وإذا تعارضت الفطرة مع الحضارة فلا بد أن يكتب النصر للفطرة، قصر الصراع أم طال " وقد يجتمع على الفطرة ركامات، فلا بد من إزالتها بإدراك حقيقة الإسلام، وتجديد العبادة والأخلاق والمعاملات، "وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" [سورة يوسف، الآية: ٢١] وقال: "كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ" [سورة المجادلة، الآية: ٢١]. فدعوتنا وشعارنا: إلى الإسلام من جديد. إلى الإسلام من جديد.

بالإسلام أعزنا الله!

القوة والضعف كلمتان، كثراستعمالهما في حياتنا الطبيعية، وشاع استخدامهما في نشاطاتنا اليومية، وقد وضع الناس لهما مقاييس ومعايير، فكل من كان كثير العُدة والعتاد، وفير الثروة والاقتصاد، اعتبر رفيع المنزلة، كبير الشأن، وجُعل له موضع إجلال واحترام، وكل من كان قليل المال، خالي الوفاض، اعتبر مهينًا ذليلاً، وظن رجلاً لا يعبأ به، هذا المقياس الانحيازي المادي لا يقبله العقل، ولا توافقه الشريعة، بل يعارض كل المعارضة نظرية الإسلام، فيرفضه الإسلام رفضاً باتاً، ويقول: إن المؤمن بالله قوي، وإن كان قليل البضاعة، والكافر بالله ضعيف، وإن كان يملك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة. "وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ" [سورة الحج، الآية: ٣١]، وقال: "وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ" [سورة البقرة، الآية: ٢٢١].

القوة والغلبة طبيعة هذا الدين، والضعف والهزيمة نتيجة الكفر والشرك، كان الناس في الزمن الجاهلي يعيشون في ذل واستكانة، لم تكن لهم عزة ترفع شأنهم، وتعلي مكانتهم، إذ

جاء الإسلام فبدّل الجو غير الجو، وجعل رُعاة الإبل سادة العالم، وقادة الأمم، والذين كانوا رؤساء القبائل وصناديد العشائر من الكفار والمشركين انكمشت ظلالهم، وخضدت شوكتهم إن كانت لهم شوكة، ولا تصوير أدق وأشمل للجاهلية والإسلام من خطبة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه إمام ملك الحبشة، فقد خطت خطّاً فاصلاً بين القوة والضعف والغلبة والهزيمة، وأعلن القرآن: "وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ" [سورة المنافقون، الآية: ٨].

كلما أخذ الناس بالإسلام وتعاليمه، وتشبثوا بتوجيهاته كانوا مرفوعي الرأس، يُشار إليهم بالبنان، وكانوا قادة وسادة، وكانت لهم حكومات، وقامت لهم حضارات وثقافات، فأثرَوا العالم بفتوحاتهم العلمية والسياسية، فرفرفت رايات الإسلام من أقصى العالم إلى أقصاه، وكانت الخلافة الراشدة والخلافة الأموية والخلافة العباسية والخلافة العثمانية امتداداً لهذه السعادة، بل ثمرةً لهذه الدوحة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.

إن دراسة الإسلام بعمق وواقعية تبعث في الإنسان الثقة بالنفس، والاعتماد على الله تعالى، فالمسلم الحقيقي يكون مفعماً بالروحانية والعلم، فلا يُصاب بمركب النقص، ولا يُمنى بالشعور بالاستعلاء، لأنه يتظاهر بالإسلام وشعائره عملياً، فيجد فيه متعته وروحه، ويدرك فيه لذته وحلاوته، وقد أشار إلى ذلك رسولنا العظيم محمد صلى الله عليه وسلم: ثلاث من كن فيه وجد

بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار[١]، وقال: ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً[٢].

العزة والغلبة لا تتحقق إلا إذا تمثل الإسلام بأتم مظاهره وأكمل أشكاله، لأن الإسلام لا يتعلق بالقلب فحسب، بل يتشكل بالجوارح، ويتجسد بالأعضاء، فإذا كان هناك تمثيل في العقيدة وتفريط في العبادات كان وفاءً بجانب، وغمطاً لجانب آخر، وهذا السلوك لا يؤدي إلى الغلبة والعزة، بل إلى الخزي والندامة، قال تعالى: "أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ" [سورة البقرة، الآية: ٨٥].

إن الإنسانية قد أصيبت اليوم بنكبات ونكسات، ومُنيت بمصايب كثيرة، والسبب معلوم، وهو أن الإنسانية إما نبذت تعاليم الإسلام وراءها ظهرياً، أو فرّطت في العمل بها أو وزّعته في شعب مختلفة، ولن تنجو الإنسانية البائسة من هذه التهلكة إلا بالعودة إلى ملجأها الأصيل، كما قال مالك بن أنس رحمه الله: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها[٣].

---

[١] متفق عليه، عن أنس بن مالك.

[٢] رواه مسلم، عن العباس بن عبدالمطلب.

[٣] كتاب المبسوط للقاضي إسماعيل المالكي.

فـالعزة مقرونـة بالإسـلام، وإذا تغلغـل الإسـلام في أحشـاء القلوب وصدقه العمل تبدلت نظرية الإنسان نحـو الحيـاة والكـون، وسـاد العـالم جـو مـن الهـدوء والطمأنينـة، وغشـيتها سـحابة مـن السمو الروحي، والشرف الرباني، وقد تجلى ذلك من قول سيدنا سلمان الفارسي الذي أبداه إمام طبقة أرستقراطية في بغداد من غير خوف ولا وجل: أأترك سنة حبيبي لهؤلاء الحمقى، وقد قال أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضـي الله عنـه: إنـا كنـا أذل قـوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزة بغير مـا أعزنـا الله بـه أذلنـا الله[1]. قال الله تعالى: "وَمَنْ يَبْتَـغِ غَيْـرَ الإِسْـلَامِ دِينًـا فَلَـنْ يُقْبَـلَ مِنْـهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ" [سورة آل عمران، الآية: ٨٥].

يقول العلامـة النـدوي: "هنـا نظامـان للغلبـة والانتصـار: نظـام طبيعي، خلقه الله تبـارك وتعـالى، وهـو أن الكثـرة تغلـب القلـة، وأن الغنى يغلب الفقر، فالنار تحرق، والماء يغرق، والسم يقتل، والترياق ينجـع، لكـن هنـاك نظامـاً آخـر، وهـو نظـام الإيمـان والعقيـدة، فـإذا تصادمت الغايتان: الغاية الطبيعية والغاية الشرعية رجحت كفة الغايـة الأخيرة، فالنار تحرق، لكن ما أحرقت إبراهيم عليه السلام"[2].

---

[1] المستدرك على الصحيحين، كتاب الإيمان.

[2] المسلمون وقضية فلسطين: ١٠١.

الإسلام يعلو ولا يعلى عليه

معجزة الإسلام الكبرى بقاؤه وصلاحيته لقيادة العالم رغم محاولات حثيثة، وكلما استهدف الإسلام أو صار عُرضةً للهجمات والغارات تزايد إشراقه، وثبتت جدارته للبقاء، وبالتالي أخرج الإنسانية من الشقاوة والتعاسة إلى نور الهداية والسعادة، ومعلوم أن الله تعالى قد أودع في الإسلام ميزتين بارزتين: تعاليمه التوجيهية التي تحل قضايا ومشكلات كل عصر ومصر، وأخراهما: وجود رجال أكفاء، ينفون عن الإسلام تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

فالإسلام دين الفطرة، ونظام الطبيعة، فكما أن الطبيعة لا يأخذها القدم والبلى، كذلك لا تؤثر في الإسلام تقلبات الزمن، فلا يتغير بتغير الزمان والمكان، ولا يتبدل بتبدل الأمم والأمصار، فهو غالب في كلِّ زمان، وصالح للفتح والغلبة في كل مكان، قال الله تعالى! "فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ" [سورة الروم، الآية: ٣٠].

شهد التاريخ الإسلامي موجات عارمةً للهجوم على الإسلام، فكلما دبّر الأعداء مكايد شريرة أزهقها الله تعالى،

وجعل الحق غالباً فرفرف رايته على الأرض، كان الإسلام متمثلاً في صورة آدم ونوح عليهما السلام تجاه الكفار والمشركين، وكان الإسلام أمام نمرود في صورة إبراهيم، وأراد نمرود أن يحرقه، وكان الإسلام أمام فرعون في صورة موسى عليه السلام، وإمام محكمة الروم في صورة عيسى عليه السلام، لكن "جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا" [سورة الإسراء، الآية: ٨١].

إن رسولنا العظيم محمداً صلى الله عليه وسلم حينما بُعث في مكة المكرمة فلقي من سكانها عداوةً شديدةً، وجعل أهل مكة يؤذونه ويخططون له مخططات عدائيةً، لكن الله عصمه من كل سوء، وباءت محاولات الأعداء بالفشل الذريع، هذا يدل على أن الخلود والبقاء قد كتب لهذا الدين الحنيف الخالص من شوائب الشرك، هناك عدة مواقف في السيرة النبوية، تثبت خلود الإسلام على مدى التاريخ.

١—لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم أدق لحظة وقت الهجرة، ففي المرة الأولى حينما كان يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيته واجتمع أمام بيته من كل قبيلة فتى شاب صاحب جلادة ونسب، وكانت السيوف مصلتةً، لكنه خرج ينثر التراب عليه: "فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ" [سورة يس، الآية: ٩]، وفي الثانية حينما وصل الأعداء بحثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم إلى غار ثور، وكان الأمر حسب تعبير العلامة الندوي: "حبست الإنسانية أنفاسها، ووقفت خاشعة، فإما امتداد شقاء أو افتتاح سعادة، لكن الله حال بينهم وبين ذلك" "فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ

اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا" [سورة التوبة، الآية: ٤٠].

٢—خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرةً إلى بني النضير، فرقُّوا في الكلام، ووعدوا بخير، لكن أخفوا في نفوسهم الغدر والاغتيال، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً إلى جدار، فناجى بعضهم بعضاً: فمن يعلو هذا البيت، فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فأوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقام وخرج إلى المدينة المنورة.

٣—وفي غزوة خيبر أهدت زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية قد سمتها، وكان الذراع أحب اللحوم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأكثرت السم فيه، فلما انتهش أخبر بالوحي بأنه مسموم، فترك الذراع، وجيء بالمرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: أردت قتلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما كان الله لِيُسلِّطَك عليَّ[1].

كانت اللحظة حاسمة كذلك حينما فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا، وانتشرت الردة في الأرض، وتآلب الأعداء على مركز الإسلام، فصان الله هذا الدين بعزيمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقولته البليغة: "أينقص الدين وأنا حي" وقال علي بن المديني: "إن الله أعز هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة.

وقد شهد التاريخ الإسلامي الغارة الصليبية، كادت تقضي

---

[1] صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

بنهاية هذا الدين، لكن الله قيَّض صلاح الدين الأيوبي فهزم الصليبيين وحرَّر البلدان الإسلامية وخاصة المسجد الأقصى، وكذلك كان الأمر متفاقماً في هجوم التتر، ذلك الجراد المنتشر، وكانت هزيمة التتر مستحيلةً، لكن الله – الذي يخرج الحي من الميت، وينزل الغيث من بعد ما قنطوا – هزمهم شر هزيمة، وجعلهم حاملي لواء الإسلام، فقد تحقق منه: أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه.

يتساءل كثير من الناس أن الله قد وعد بالنصر للإسلام، فالإسلام منهزم والمسلمون مخذولون؟؟ ولكن الأمر بالعكس، لا شك أن الإسلام غالب اليوم بفكرته ونظامه ودستوره، ورايته عالية في كل مكان، ولا تخلو لحظة من لحظات اليوم والليلة إلا ويرفع اسم الإسلام من المنابر والمنابر، وأن مصباحه وضاء، وهذا دليل على أنه منزل من الله، وأما المسلمون فإن نصرهم مقرون بنصر دين الله عزوجل. وتطبيق شريعته على أرض الواقع، قال الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" [سورة محمد، الآية: ٧].

فديننا دين الغلبة والانتصار لا دين الهزيمة والانتكاس، يقول العلامة الندوي: "إن الإسلام دين حي، ورسالة خالدة، إنه حي كالحياة نفسها، وخالد كخلود الحقائق الطبيعية ونواميس الحياة، إنه تقدير العزيز العليم، وصنع الله الذي أتقن كل شيء، وهو السميع العليم"[1].

---

[1] رجال الفكر والدعوة: ج ١/ ١٤، طبع دارالرشيد لكناؤ، ٢٠١٤م.

إن الدين عند الله الإسلام

الإسلام والإيمان اسمان لظاهرتين مهمتين: أولاهما تنتمي إلى الظاهر، وأخراهما إلى الباطن، فالمسلم هو الذي يُمثل شعائر إسلامه من النطق بالشهادة وإقام الصلاة وإيتاء والصوم والحج والأخلاق الإسلامية، والمعاملات الدينية، والمؤمن هو الذي يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، قال الله تعالى: "قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" [سورة الحجرات، الآية: ١٤] وقد روى ابن النجار والديلمي عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل.

تجلت ظاهرة الإسلام واضحةً في القرون المشهود لها بالخير، وكلما ظهرت بأتم صورها تركت آثاراً خالدةً على الأفراد والمجتمعات، وغيّرت مجرى الحياة، فهي كالمغناطيس الذي تنجذب إليه القطع الحديدية، فإلى الإسلام تهفو القلوب، وإليه تميل النفوس ومنه تتدفق العواطف النبيلة والمشاعر الطيبة، وتنبع منه

الحضارة الإنسانية النموذجية، ولا شك أن المجتمع المدني كان مجتمعًا مثاليًا، لأن مظاهر الإسلام كانت متمثلةً في كل جزء من أجزاء الحياة، فكلما جاء رجل ومكث في المدينة المنورة دقائق وثوان، شعر بانقلاب في داخل نفسه، وبدأ ينسجم مع هذا المجتمع الإسلامي، حتى نطق بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وقد سجل التاريخ نماذج رائعة للإسلام المتمثل في المجتمع، غيّرت اتجاهات العامة والخاصة.

١—معلوم أن ثمامة بن أثال كان من قبيلة بني حنيفة، وكان ملكاً من ملوك اليمامة، تلقى رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بالاحتقار والإعراض، وهمَّ بقتله، لكن نجَّى الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) من شره، وأسره الصحابة رضي الله عنهم وأتوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فظل مربوطاً إلى ثلاثة أيام، ونظر خلال هذه الفترة روائع الإسلام، وتعاملات المسلمين مع الأسارى حتى دماثة خلق النبي صلى الله عليه وسلم، بحيث يؤتى له بالطعام والشراب، وتُحلب له الناقة في الغدو والرواح، ولما فُكَّ وثاقه وأطلق سراحه ذهب إلى نخل من المدينة فيه ماء، فتطهّر ثم عاد، ونطق على ملإ من المسلمين بكلمة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله[1].

٢—وجاء في سنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضافه ضيف كافر، فأمر له رسول

---

[1] الإصابة في معرفة الصحابة، ج ١، ص ٢٠٣.

الله صلى الله عليه وسلم بشاة فحلبت فشرب، ثم أخرى فشربه ثم أخرى فشربه، حتى شرب حلاب سبع شياه، ثم أصبح من الغد فأسلم، فأمر له رسول الله صلى الله عليه بشاة فحلبت فشرب حلابها، ثم أمر له بأخرى، فلم يستتمها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المؤمن يشرب في معى واحد، والكافر يشرب في سبعة أمعاء[١].

٣—وحدث الشعبي أن علياً رضي الله عنه ضاعت منه درع، فوجدها عند نصراني، فأقبل به إلى القاضي شريح، يخاصمه، وقال علي: هذه الدرع درعي، ولم أبع ولم أهب، فقال شريح للنصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال النصراني: ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت شريح إلى علي، وقال: يا أمير المؤمنين! ألك بينة؟ فابتسم علي: وقال: أصاب شريح، مالي بينة، فقضى بالدرع للنصراني، فأخذها، ومشى خطوات، ثم رجع، فقال: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين يدنيني إلى قاضيه، فيقتضي، فيقضى عليه، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين! سقطت منك وأنت منطلق إلى صفين، قال: أما إذا أسلمت فهي لك[٢].

الواقع أن ظاهرة الإسلام تؤثر في القلوب، فينقلب منها كل

---

[١] كتاب الأطعمة، باب أن المؤمن يأكل في معى واحد.

[٢] البداية والنهاية لابن كثير.

شيء من العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات، وهذا لا يمكن إلا بتقوى الله تعالى، واستحضار عقيدة الآخرة، كان الإسلام في القرن الأول مرآةً صافيةً، فكان له أثر خلاب، ويخافه ملك بني الأصفر، ولما تضاءل التمثيل بالإسلام تألب عليه أعداء الإسلام من كل حدب وصوب، وصدق ما قاله رسولنا العظيم محمد صلى الله عليه وسلم: ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت. وقد أضعف هذان العنصران (حب الدنيا وكراهية الموت) التمثيل بالإسلام، فالحاجة ماسة إلى الإسلام من جديد. لأن الله تعالى يقول: "إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإسلام" [سورة آل عمران، الآية: ١٩].

ادخلوا في السلم كافة

الإسلام دين الفرد والمجتمع، دين الخاصة والعامة، دين الرجال والنساء، دين المسجد والسوق، دين الدنيا والآخرة، دين يشمل قضايا الدنيا، فيقدم لها حلاً ناجعاً، ورداً مقنعاً، ولا شك أن الدنيا دار العمل، والآخرة هي دار الجزاء، فكل ما عمل الإنسان في الدنيا من عمل يرى نتيجته في الآخرة، قال تعالى: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَّرَهُ، وَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" [سورة الزلزال، الآيتان: ٧ — ٨].

كان الإسلام دين جميع الأنبياء والرسل، لكن شريعتهم كانت مختصةً بأزمنتهم، فإذا جاء زمن آخر تبدلت الشريعة، وتغير القانون وفقاً لقوله تعالى: "لِكُلٍّ جَعَلنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً" [سورة المائدة، الآية: ٤٨]، لكن الدين ما زال واحداً نظراً إلى قوله صلى الله عليه وسلم: (الأَنْبِيَاءِ إِخْوَةُ مِن عَلاَّتٍ، وَأُمَّهَاتُهُم شَتَّى، وَدِيْنُهُم وَاحِدٌ)[1] حَتّى بُعِثَ مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان على الملة الحنيفية البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وكانت سمة هذه الملة الجمع بين الدين والدنيا، وبين

---

[1] صحيح مسلم: ٦٢٨١.

الروح والمادة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم وحَّد رجال الدين ورجال الدنيا في صف واحد، وعلَّم العالم بأسره هذا الدعاء: "رَبَّنَآ آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ" [سورة البقرة، الآية: ٢٠١]

قد مرت في التاريخ عهود كان الخليج بين الدين والدنيا واسعاً، والفجوة بين عالم الروح وعالم المادة متسعةً، وكان الناس في معسكرين منفصلين، وكان شعار هذه العهود: أعطوا ما لقيصر لقيصر، وأعطوا ما لله لله، وجرت بهذا التقسيم الجائر مناوشات وحروب بين رجال الدين ورجال الدين، وإن قضية محاكم التفتيش ليست بسرٍّ لدى أهل العلم، وقد روى التاريخ أن فصل الدين عن الدنيا أتى بعجائب، وصدرت منه مضحكات ومبكيات، بحيث إن رجل الدنيا كلما صدر منه ذنب كان يأتي إلى رجل الدين، ويعترف أمامه بخطأه، ويقدم إليه نقوداً، فيكتب له صك المغفرة، فترتاح نفس رجل الدنيا أن ذنبه قد غفر، فكان رجال الدنيا أحراراً في شئونهم الدنيوية، وأمورهم الشخصية، وكل ذلك جرَّاء فصل الدين عن الدنيا. يقول الدكتور محمد إقبال: فلما انفصل الدين عن الدولة، جاءت الشهوة، وشاع الهوى، وساد قانون الغاب[1].

جاء الإسلام، وملأ هذه الفجوة بين الدين والدنيا، وأنشأ في قلوب الناس أنه ليس هناك فرق بين أعمال الدين وأعمال الدنيا، فكل

---

[1] روائع إقبال للعلامة الندوي.

عمل ابتُغي به رضا الله تعالى، اعتُبر عمل الدين، حتى المعاملات والشئون العائلية التي تشف منها روح المادة الخالصة، تتحول إلى أعمال الدين، وذلك بنية صادقة، وقلب منيب إلى الله تعالى – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما الأعمال بالنيات[1].

جمع الصحابة الكرام رضي الله عنهم بين الدين والدنيا، فكانوا قادة العالم وسادة الأمم، وحينما انحصر الدين في بعض العبادات تخلَّى المسلمون عن القيادة، وصاروا في مؤخر الركب، وابتلوا بالخزي والندامة في الدنيا، ولكن ماذا سيكون مصيرهم في الآخرة يتحدث عنه القرآن الكريم: "أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ" [سورة البقرة، الآية: ٨٥]

إذا قارنا بين الدين الإسلامي وحياتنا اليومية وجدناها توافق الدين الإسلامي فقط في العبادات: في الولادة والنكاح والطلاق والصلاة على الميت، وتخالفه في الوظائف والعقود والبيوع ومحافل القرآن، فكم من أموال تُنفق هدرًا، وكم من أعراض تُنتهك، وكم من حقوق تُضاع، وكم من قوانين تُخرق، وكم من نظم حديثة تُوضع، فُقد الأمن والسلامة من الفرد والمجتمع، ولن ينال الإنسان الطمأنينة والأمن إلا بتطبيق شريعة الإسلام على نفسه – على أقل تقدير – وبإيصالها إلى الناس كافة.

الحديث عن تطبيق الإسلام يُوحي إلى ذهن الإنسان أن تكون

---

[1] رواه البخاري.

هناك حكومة، تؤيد هذه الفكرة وتنفذ هذه النظرة، ولا شك في ذلك، لكن السبيل الميسور الذي سلكه بعض الدعاة والمصلحين في بعض الدول الإسلامية، ووجدوا ثمار الدعوة مأة في المأة هو أنهم يبلّغون الإسلام إلى أصحاب الحكومات، فيتأثرون به، وينصهرون في بوتقته، ويشرّعون نظاماً يوافق تماماً الشريعة الإسلامية، وقد جاءت الحكومة منقادةً إلى علماء الدين تجرّر أذيالها، وكانت تحفةً ربانيةً إلى الدعاة المخلصين، فهذا هو أقوم طريق للخروج من الأزمات وتطبيق الإسلام على الفرد والمجتمع، بذلك يتحقق معنى الجمع بين الدنيا والآخرة، وذلك ما قال الله تعالى في القرآن الكريم: "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِى السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ" [سورة البقرة، الآية: ٢٠٨].

اعملوا ، فكل ميسَّر لما خُلق له

إن الإسلام دين التوفيق الإلهي، دين الرحمة والفضل، دين الموهبة الربانية، ودين العطاء السرمدي، دين يثق فيه الناس بالله تعالى أكثر من أعمالهم، فينالون رضا الله تعالى، فلا يستطيع أحد أن يدخل الجنة بعمله وجهده، حتى إن رسولنا العظيم محمدًا صلى الله عليه وسلم كذلك، إلا أن الله يتغمده برحمته الواسعة وفضله العميم، وهو دين مشيئة الله تعالى، وما تشاؤن إلا أن يشاء الله رب العالمين.

التوفيق أغلى وجود، وأثمن كيان، وهو منزلة عظيمة يهبها الله الإنسان بقدر إنابته إلى الله، وتضرعه إليه، وهو مقرون بهمة الإنسان ومرتبط بجهده، فإذا سعى أحد سعياً مشكوراً، وبذل جهداً محموداً، نال بغيته وكسب غايته، فالتوفيق متصل بقدر الهمة من الأزل، وقد قال الله تعالى: "إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى. فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى" [سورة الليل، الآيات: ٤ – ١٠] فليس التوفيق عبارة عن التعطل عن العمل، والبعد عن النشاط، والاتكال على الله تعالى، بل هو جهد وجهاد، وسعي ومسعاة، فإذا كانت الهمم عاليةً أحرز الإنسان

النجاح، وإذا كانت ضعيفةً أو مصابةً بالخور أحجم عن المعالي. وقد قيل: "السعي مني والإتمام من الله".

وكل نبي من الأنبياء كان موفقاً، وذلك بإخلاص العمل لله، وهذا شعيب عليه السلام بُعث إلى قوم ينقصون في المكيال والميزان، فدعاهم إلى إصلاح أحوالهم، ونسب كل ما كان، إلى الله تعالى بقوله: "وَمَا تَوْفِيقِيَ إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ" [سورة هود، الآية: ٨٨]. وقد تمنى رسولنا العظيم محمد صلى الله عليه وسلم أن يُسلم عمه أبو طالب، وبذل في ذلك أقصى جهده، لكنه لم يسلم، قال الله تعالى: "إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ" [سورة القصص، الآية: ٥٦]، وقد أشار إلى ذلك سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم في حديثه: إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من أحب[1].

يتمنى الإنسان في هذه الدنيا تمنيات كثيرة، ويحلم بأحلام متنوعة، ويرجو تحققها على عجل، ويجهد فيها ويتعب، ويكون مملوءاً بالهموم والأفكار، فأحياناً لا تظهر نتائجها حسب إرادته، فليس معناه أنه مكروه عند الله، ومبغض لديه، بل إن الله عزوجل أراد به خيراً كثيراً، فأخَّر نتيجته. فهذا الإنسان يتحسر ويتأسف على ما فات، وقد صدق من قال: الإنسان يدبّر والله يقدِّر. رغم ذلك كله فإن الإنسان مكلَّف للعمل في هذه الدنيا، والدنيا دار

---

[1] رواه أحمد: رقم الحديث: ٣٤٩٠.

العمل، فإذا اقترن هذا العمل بروح من الإخلاص كان مقبولاً، وكان صاحبه موفقاً.

كثير من الناس يتكلمون أن فلاناً موفق، أو حالفه التوفيق، أو ساقه التوفيق الإلهي فليس معنى ذلك أنه لم يعمل شيئاً، بل إن الله نظر إلى حرقة قلبه، وإنابة باطنه، فوجهه إلى جهة صحيحة، وأرشده إلى أحسن طريق، ومعلوم أن الله كتب الإحسان على كل إنسان، وطالب منه أن يطبِّقه في كل جزء من حياته، ويحب الله تعالى من يحسن العمل، فكل من كان موفقاً لا يكون عمله ناقصاً، بل يكون كاملاً وجميلاً، ومتصفاً بجميع صفات القبول.

وهناك نموذجان في القرآن الكريم:

(١) قدَّم ابنا آدم عليه السلام قرباناً، فتقبل الله من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، رغم أن كليهما قدَّما وفقاً للشروط الظاهرة، وطبقاً للأمور اللازمة، ولم يكن هناك فرق في الظاهر، لكن الأول قدَّم قربانه بتقوى من الله تعالى، وقدم الثاني إشباعاً لغريزة إنسانية، فتقبل الله من الأول، وقال في القرآن الكريم: "إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ" [سورة المائدة، الآية: ٢٧].

(٢) أظهر سحرة فرعون سحرهم يوم الزينة، فدُهش الناس وبُهتوا، وكان سحرهم نوعاً من مهارتهم الفنية، ولعبتهم المادية، لكن موسى عليه السلام لما ألقى عصاه، وانقلبت العصا حية تسعى، فلقفت كل ما صنعوا، وأبدى السحرة سحرهم مبنياً على فنهم، لكن معجزة موسى عليه السلام كانت من الله تعالى، فغلب

موسى عليه السلام، وانهزم الساحرون. قال تعالى: "إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى" [سورة طه، الآية: ٦٩].

فإن التوفيق وإن كان من الله، لكنه مقرون بعمل الإنسان، فإذا كان الإنسان مخلصاً في عمله، نشيطاً في إرادته، يقظاً في ممارساته حالفه التوفيق الإلهي، وكان مطمئن البال رغيد العيش، ناعم القلب والضمير، لا يضطرب ولا يحزن، ولا يكدر حياته هم وتسهيد، ولا يضيق صدره من فكر وبلاء. وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عما يعمله الناس أهو أمر قد قضي وفرغ منه أم أمر مستأنف، فقال: بل أمر قد قضي وفرغ منه، فقالوا: ففيم العمل يا رسول الله؟ فقال: اعملوا، فكل ميسَّر لما خلق له، "وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" [سورة التوبة، الآية: ١٠٥].

إذا لم تستح ،فاصنع ما شئتَ

الإسلام دين الحمية والغيرة، دين الأنفة والإباء، دين الحماسة والشجاعة، دين جعل الله تعالى ذروة سنامه الجهاد في سبيل الله، دين ينشأ فيه الأطفال على عواطف التفاني في طريق الحق، وصيانة الحرمات والمقدسات، دين يدعو إلى الاحتفاظ بالشخصية الإسلامية وإن تأزمت الأوضاع وتفاقمت الخطوب، دين جُبل أصحابه على الحياء والحشمة، والوقار. قال الله تعالى: "فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" [سورة الروم، الآية: ٣٠].

الغيرة معناها: تغير القلب وهيجان الغضب، وهي غريزة إنسانية، وفطرة داخلية، ومظهر من مظاهر الرجولة، ورائعة من روائع الشكيمة، وكان العرب غيارى وأولي حمية جاهلية، فلا يحتملون أدنى ذلة نحو النفس والمال، فوقعت الحروب واشتبكت الكوارث، ومن بينها حرب الفجار، وكان من سببها أن شباباً رأوا امرأةً في سوق عكاظ، فأصرُّوا عليها أن تسفر عن وجهها، فأبت، فجعلوا يسخرون منها، فاستغاثت المرأة، فلبتها رجال من بني عامر ووقعت الحرب، فتفجرت الدماء وتناثرت الأشلاء. وكان العرب كثير الغيرة على أعراض الجار

فضلاً عن أنفسهم، يقول عنترة بن شداد العبسي:

وأغـض طـرفي إن بـدت لـي جـارتي
حـتى يـواري جارتـي مأواهـا

طلعت شمس الإسلام من أفق تهامة، فانتشرت الغيرة والإباء من أشعتها، وقد أعلى الإسلام قدرها، وأشاد بذكرها، فانقمست الغيرة إلى نوعين: محمودة ومذمومة، فالمحمودة ما وافق حد الاعتدال، والمذمومة ما خرج منه، ومعلوم أن الله تعالى يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرّم الله عليه[١]، وقد عُد الدفاع عن النفس والمال جهاداً وشهادةً، قال صلى الله عليه وسلم: (من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد) [مروي عن سعيد بن زيد]، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أعظم الناس غيرةً لله تعالى، فكان يغضب إذا انتهكت محارم الله تعالى، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه في شيئ يؤتى إليه، حتى ينتهك من حرمات الله فينتقم منه[٢]، وكان الصحابة رضي الله عنهم قد جُبلوا على الغيرة الإيمانية والحمية الدينية، فلم يتلكأوا في الخروج في سبيل الله ولم تنثلم إرادتهم، وقد سمعوا يوم أحد من أبي سفيان: أعل هبل، فقالوا: الله أعلى وأجل، ونادى الكفار: لنا العزى ولا عزى لكم، رد الصحابة رضي الله عنهم عليهم بقولهم: الله مولانا ولا مولى لكم.

---

[١] رواه البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٢] رواه البخاري.

وقد حفظ التاريخ روائع من الغيرة الإيمانية، وكان رجالها مثلوا دوراً رائعاً خلَّد الزمان ذكراهم:

١—منها أن امرأةً مسلمةً سُبيت في الهند، واضطهدت في عرضها ونفسها، فنادت: واحجاجاه (إشارة إلى الحجاج بن يوسف الثقفي) فبلغه ذلك، فجعل يقول: لبيك، لبيك، وأنفق سبعة ملايين من الدراهم حتى حررت.

٢—منها أن امرأة شريفة أسرها الروم، لا يعرفها الخليفة العباسي المعتصم، لكنها كانت مؤمنةً، استغاثت واستنجدت من الخليفة حينما اعتدى عليها صاحب عمورية، ونادت بصوت يملؤه الحزن والكآبة: وامعتصماه، وما إن قرعت هذه الجملة آذان المعتصم حتى قال: لبيك، وأشار عليه المنجِّمون أن الطقس لا يوافق تماماً للإغارة والهجوم، لكن الخليفة المعتصم لم يبال بذلك، بل خرج ناصراً لامرأة مظلومة مع جحافل المسلمين، وفتح قلعة عمورية، واستخلص المرأة من براثن الروم. وقد عبَّر عن ذلك الشاعر المعروف أبو تمام حبيب بن أوس الطائي في قصيدة، مطلعها:

السيف أصدق إنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

٣—كان السلطان صلاح الدين الأيوبي من أولي الغيرة الإيمانية، وقد رأى أن البيت المقدس ما زال مكبَّلاً بأغلال الصهاينة، واستولوا عليه منذ أمد بعيد، فنهضت غيرته وقام يسترد البيت من أيدي الظالمين، كما سمع أن رجلاً صليبياً من

بيوت الأمراء قد أساء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فغار غيرة، وحلف أنه إذا قبض عليه قتله بيده، وكانت في بلاد الشام اثنتا عشرة دويلةً، فسعى لضم هذه الدويلات إلى دولة واحدة، ونجح فيها، ثم وقعت معركة حطين وحصل لصلاح الدين النصر والفتح المبين، جاء إليه كثير من أبناء الملوك وجماهير الناس، فتقدم السلطان إلى الرجل الذي أساء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقتله بيده، وفاءً بذلك الحلف الذي حلفه، وكان البيت المقدس عند الصليبيين، فاسترد بقوة قاهر وسلطة جابر.

إن كارثة بورما ليست كارثةً عامةً، بل هي إبادة جماعية للمسلمين، وليست جريمتهم إلا الإيمان بالله وانتماؤهم إلى الإسلام، وقد شُرد بعضهم من بلادهم، وقتل بعضهم، وأحرق بعضهم حتى بلغ عددهم إلى آلاف، فلم تسمح لهم أي دولة بالدخول في بلدهم، فكانوا عُرضة للموت والضياع، رغم أن الأغلبية الساحقة للمسلمين تسكن هذه المناطق وتعمر هذه البلدان. لعل هذا الزمان قد ماتت فيه الغيرة الإيمانية، فلا تحرك كارثة ساكناً ولا تقض حادثة مضجعاً، الأعراض تنتهك، والمقدسات تهدم، وبلدان المسلمين تحول إلى رماد، وتكون أراضي مجهولة لا يعيشها إلا البهائم والوحوش، فليست هنا خلافة يستند إليها المسلمون، ولم تكن هناك نظام وحدة وتضامن يستنجد منها المشردون، وإذا كان هناك غيارى، أو أصحاب حمية دينية، فلا يملكون غير الدعاء، ولا شك أن الدعاء سلاح المؤمن، ولا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر.

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت

الإسلام دين الفرد والاجتماع، دين الوحدة والجماهير، دين جعله الله تعالى لصالح الإنسانية، فهو كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن لم يركبها غرق، دين كله خير ونفع ونجاة، وفقدانه ظلم وجور وخسارة، دين يأمر الله سبحانه بالاعتناق بكامله، قال تعالى: "يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِى السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ" [سورة البقرة، الآية: ٢٠٨].

كل مجتمع يتكون من عنصرين مهمين: أحدهما: الفرد، وثانيهما: الجماعة، بل الواقع أن المجتمع يتركب من الأفراد، أما الجماعة فهي مجموعة منها، فإذا صلح الأفراد صلح المجتمع، وإذا فسد الأفراد فسد المجتمع، وكان جُماع الأمراض والعاهات، واستشرى مرضه وتعدى خطبه إلى الآخرين، فعادت تبعته عليه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تُقتل نفس ظُلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها، لأنه أول من سنَّ القتل، من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها، ومن سن سنةً سيئةً فعليه وزرها ووزر من عمل بها[1].

---

[1] رواه البخاري: ٣٣٣٦.

فإذا كان أفراد المجتمع مطلعين على الإيمان بالله، والعدل والإنصاف، والعلم الإلهي، وأداء كل ذي حق حقه، وإكرام كل كبير وصغير، ورعاية حقوق الآخرين، وكانوا متحلين بالصفات النبيلة كان المجتمع الإنساني طاقة زهر لا شوك فيها، وباقة ورد تتفتح منها البراعم الإيمانية، وإذا كان الأمر بالعكس كان المجتمع ناراً تتأجج، وشعلة تشتعل، وكان وصمة عار وشنار على جبين الإنسانية، قال الله تعالى: "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [سورة التوبة، الآية: ٧١].

ذكر الله تعالى مبادئ سديدةً وأسساً قويمةً لإصلاح الأفراد والمجتمع في سور متعددة: من النساء والنور والأحزاب والحجرات والطلاق وغيرها، فهاتان السورتان (النور والحجرات) خاصة مهمتان في هذا الباب، إن سورة النور تتحدث عن أمراض المجتمع، وتلقي ضوءً كاشفاً على الآداب الاجتماعية، وتشتمل على أصول وقواعد لا يستغني عنها أي مجتمع إنساني، قال الله تعالى: سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ، كما تشتمل على حدود الزنا واللعان والإفك، وتغطي جوانب الحياة الاجتماعية مثل غض البصر وتزويج الأيامى وعدم اتباع الشيطان، والاستئذان وقت دخول البيت، وفكرة استخلاف الأرض، والأهم المهم أن الله تعالى نور السماوات والأرض، وهو

ينوِّر الكائنات، وينوِّر قلب الإنسان. يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

وهناك سورة باسم سورة الحجرات، وهي سورة مدنية، وتشتمل على ثماني عشرة آية، ونزلت هذه السورة بعد صلح الحديبية، وهي دستور كامل للحياة، وتتحدث عن الحياة الفردية، وتتحدث عن أمراض الأفراد، وتتناول ذكر أمراضها، كما تقدم حلاً شافياً لهذه الأمراض.

تتلخص السورة في عدة نقاط:

(١) احترام كل ما جاء من عند الله تعالى، وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

(٢) تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك باحترام سنته.

(٣) يجب التثبت في الأخبار حتى لا يؤدي عدم التثبت في الأخبار إلى نتائج سيئة وآثار ضارة بالأفراد مثل القتال والخصام، قال الله تعالى: يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ.....

(٤) السورة تتحدث عن قسمين اثنين من الناس: قسم حاضر، وقسم غائب من المسلمين، أما القسم الحاضر من الناس فينتسب إليه مرض عدم السخرية وعدم التنابز بالألقاب، قال الله تعالى: يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ..... أما القسم الغائب فينتمي إليه الظن السيئ له والغيبة وتجسس لكشف عورات المسلمين وفضح أسرارهم. قال تعالى: يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ

اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُواْ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ.

(٥) تتحدث السورة عن التفاضل بين الرجل والمرأة بالتقوى. قال تعالى: يأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ.

(٦) تتناول السورة الشكر على نعمة الإيمان والهداية إلى طريق الخير. قال تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَـئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ.

لن يصلح الفرد والمجتمع إلا إذا كان عنده نفور تام من الذنوب والمعاصي، والتزام قوي بالآداب الإسلامية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن هذه الآداب تُمهِّد الطريق نحو بناء حياة الفرد والمجتمع. وروي عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم أسهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً[1].

---

[1] سنن الترمذي: ٢٠٣٢.

ولا شك أن الالتزام بالشريعة يصل بالمرء إلى مدارج عالية ومراتب رفيعة من التقرب إلى الله، وينشئ في داخله نوراً وهدىً. قال الله عز وجل: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ" [سورة الأنفال، الآية: ٢٩]. وهذا الفرقان لا ينال الإنسان إلا بإصلاح نفسه ومجتمعه، فالإصلاح هو العمدة في إحراز كل خير وسعادة، وكان هذا وظيفة الأنبياء السابقين، قال الله تعالى على لسان هود: "إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ" [سورة هود، الآية: ٨٨].

ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات

الإسلام دين الأولين والآخرين ، دين السابقين واللاحقين ، دين الرسل الغابرين ، والأنبياء الماضين ، دين الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، فهو دين يركز على ابتغاء وجه الله ونيل رضاه ، فكل من تجرد عن المصالح الدنيوية ، وتخلى عن الغرائز الشيطانية ، وتاب إلى الله وتمسك بحبله وتشبث بشريعته نال الشرف الأبدي والعز السرمدي ، وسعد بالجنات والنعيم في الدنيا والآخرة ، قال الله تعالى : "فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" [سورة البقرة ، الآية : ٢٥٦].

جعل الله لكل أمة شريعةً خاصةً ، ومنهجاً خاصاً ، وكانت هذه الأمة مسئولةً عن العمل بها في زمنها ، فإذا انتهى دورها ومضى زمانها امّحى منهجها ، وحل محلها نظام آخر ، وهلم جراً ، ففي زمن آدم عليه السلام كان الزواج من أخت حقيقية مباحاً ، وفي زمن موسى عليه السلام كان مال الغنيمة حراماً ، لكن الزواج من أخت حقيقية صار حراماً ، وأكل مال الغنيمة صار حلالاً في شريعة محمد صلى الله عليه وسلم. هذا ما أشار إليه القرآن

الكريم: "لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَآءَ اللَّـهُ لَجَعَلَكُـمْ أُمَّـةً وَاحِـدَةً" [سـورة المائـدة، الآيـة: ٤٨]، وقـال صـلى الله عليـه وسـلم: أعطيـت خمسـاً لم يعطهـن أحـد قبلـي: نُصـرت بالرعـب مسيرة شهر، وجعلت لـي الأرض مسـجداً وطهـوراً، وأحلـت لـي الغنائم، وأعطيت الشفاعة وبعثت إلى الأسود والأحمر[1].

كانت القبلة في عهد آدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام الكعبة المقدسة، لكن تحولت إلى بيت المقدس في عهود أنبياء بني إسرائيل، وما زالت إلى عهد سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانـت الـنبي صـلى الله عليـه وسـلم يـود أن تكـون قبلتـه الكعبـة المقدسة، وبقي على ذلك بعد هجرته إلى ستة أشهر، ثم نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم آيـة مـن الله تعـالى: "فَـوَلِّ وَجْهَـكَ شَـطْرَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرَامِ وَحَيْـثُ مَـا كُنْـتُمْ فَوَلُّـواْ وُجُـوهَكُمْ شَـطْرَهُ" [سـورة البقرة، الآية: ١٤٤]، فانصرف الناس إلى الكعبة المقدسـة، وهـم في الصلاة، ولم يبطل الله الصلوات المؤداة إلى جهة بيت المقـدس، قـال تعالى: "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّـهَ بِالنَّـاسِ لَـرَءُوفٌ رَّحِـيمٌ" [سورة البقـرة، الآيـة: ١٤٣]، فعـرف منـه أن المقصـود هـو رضـا الله وابتغاء وجهه، والتركيز على أصول ثابتة ودعائم متينة.

كـل نـبي دعـا قومـه إلى دعـائم متينـة، وأسـس قويمـة، وكانـت دعوته إلى توحيد الله والإيمان بالآخرة، وذلك بقوله: يَـا قَـوْمِ اعْبُـدُواْ اللَّـهَ، مَـا لَكُـمْ مِّـنْ إِلَـهٍ غَيْـرُهُ. فكانـت هـذه الأسـس مصـدر الالتقـاء

---

[1] متفق عليه عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه.

والاجتماع، ولم يدع إلى تفاصيل جزئية من الأحكام الشرعية لأنها مُنحت حسب مقتضيات العصر ومتطلبات الزمان، وقد اعتنى القرآن بها في الدعوة إلى الله، فلفت القرآن اتجاه الناس إلى هذا الجانب المهم قائلاً: "قُلْ يأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" [سورة آل عمران، الآية: ٦٤]، فكانت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم للملوك والأمراء إلى هذه الثوابت بدلاً من المتغيرات، وقد امتلأت رسائله بمثل هذه الاتجاهات، فكان وقعها على النفوس وتأثيرها في القلوب عميقاً، وسرعان ما انقلب الجوّ، وبدلت الأرض غير الأرض.

هذا الزمن زمن النظرات والاتجاهات، زمن الأفكار والآراء، لكل شعب رأي، ولكل جماعة فكرة، فلا يستطيع أن نجبر أحداً على استسلام رأي أو قبول فكرة، بل نكلفه على الاجتماع والالتقاء على الأسس الثابتة المعلومة، وهي تتلخص في الإيمان بالله والصلاة والزكاة والصوم والحج وحقوق العباد، وما يتبعها من الأعمال الصالحة، فإذا تعاوننا في الأصول، وشددنا فيها أزر الآخرين، وتسامحنا في الفروع والهوامش ظهرت النتيجة وفق ما يُرام، هذا هو شعار الدعاة المخلصين، ونداء العلماء الربانيين، فإنهم لم يكونوا قضاةً، بل كانوا دعاةً. فهدى الله بهم عدداً لا بأس به. وعمّ الخير والفضل والصلاح في أرجاء المعمورة. هذا ما يشير إليه قوله تعالى: "وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" [سورة البقرة، الآية: ١٤٨].

ولكل درجات مما عملوا...

الإسلام دين القول والعمل، دين النظرية والتطبيق، دين الكلمة الجميلة والسيرة المثالية، دين الموعظة البليغة والأسوة الحسنة، دين يتوزع فيه الناس طبقةً وشعباً، فهذا ينتمي إلى قبيلته، وذلك ينحدر إلى شعبه، ولكل قبيلة مأثرة ومفخرة، ولكل شعب عظمة وثناء عاطر، فليست هذه المزية على أساس اللون والجنس والعرق والدم، ولا للتفاخر والتناكر، بل للتعارف والتواضع، إذا عمل الإنسان عملاً أعطي جزاؤه، والواقع أن النتائج لا تتأتى بالأماني والأحلام، ولا بالأحساب والأنساب، بل إنما تتبين بالعمل المتواصل والسعي الدؤوب، قال الله تعالى: "لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ، مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ" [سورة النساء، الآية: ١٢٣] وقال صلى الله عليه وسلم: من بطأ به عمله لم يسرع إليه نسبه[١].

خلق الله الإنسان وهداه طريق الحق والصواب، فبعث له الأنبياء والرسل، وأنزل معهم الكتب والصحف، فمن آمن بالله تعالى وعمل بأحكامه كان مؤمناً حقاً، ومن كفر بالله، ورفض

---

[١] صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء: ٢٦٩٩.

شريعته كان بغيضاً عند الله تعالى، هنا انقسم الناس في فئتين: مؤمن وكافر، شاكر وجاحد، ولكل منهما درجات ومنازل، فأما المؤمن فيدخله الله الجنة، وأما الكافر فكان مثواه النار، لأن كل إنسان مرتهن بعمله، ومجزي بكسبه، قال الله تعالى: "كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ" [سورة المدثر، الآية: ٣٨]، إن قليلاً من التأمل في كتاب الله يكشف لنا قائمة طبقات كثيرة وجماعات متعددة في الناس: المؤمنون والمشركون والمنافقون واليهود النصارى والصابئون والمجوس، وهؤلاء الطبقات لهم أعمال ونشاطات وفق معتقداتهم، وجهود وفعاليات حسب اتجاهاتهم، وإذا دققنا النظر وجدنا أن الرجال الذين اصطفاهم الله تعالى ونظر إليهم وأخلصهم، هم الأنبياء والشهداء والصديقون والصالحون والمتقون، وأما الصالحون الذين أورثهم الله تعالى الكتاب من هذه الأمة انقسموا بأعمالهم إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، سابق بالخيرات، ومقتصد. قال تعالى: "ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ" [سورة فاطر، الآية: ٣٢].

الإيمان حقيقة من الله تعالى ثابتة، وهو قول وعمل، وهو يزيد وينقص، وقد ربط الله تعالى بالإيمان النجاة في الدنيا والآخرة، فمن تكلم بكلمة الإسلام ولو مرةً واحدةً في عمره كانت له نجاة من النار، ومن نطق بكلمة الشرك في حياته، لا يغفر الله له هذا الشرك وإن فدى له جميع ما في الأرض بكامله، حينما

يـؤمن الإنسـان يبلـغ بـه إيمانـه إلى أعلـى مراتـب الكمـال ومـدارج النجاح، وحينما يشرك بـالله ويعتقـد اعتقـادات باطلـة في الله تعـالى يخر من السماء في تلك الآونة فتخطفـه الطير أو تهـوي بـه الـريح في مكان سحيق، وإذا خالط هذا الإيمان ذكر الله وتسبيحه وتحميده، كان بمثابة غرس غراس في الجنة، وبناء قصر شامخ، وبـرج مشيد. أخرج الإمام ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ به وهو يغرس غرساً، فقـال: يـا أبـا هريـرة! مـا الذي تغرس؟ قلت: غراساً، قال: ألا أدلك على غراس خير من هذا؟ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر، تغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة[1].

القرآن الكريم كتاب الله الأخير، فكـل مـن حفـظ القـرآن أو قرأه أو تعلق بأي جـزء مـن أجزائـه نـال الشـرف والعظمـة في الـدنيا والآخرة، وصاحب القرآن يجد على كل حـرف مـن القـرآن الأجـر والثواب، وهو من أهل الله وخاصته، وأوليائه المقربين إلى جنابـه، هذا الكتاب يرفـع درجـات الإنسـان ويصـل بـه إلى المكانـة العاليـة، ومن لم يقـرأه يضـعه كـذلك في أحـط درجـة مـن التسـفل والمهانـة، فكم من أسرة أو قبيلة خاملة الذكر لا يعبأ بهـا النـاس ولا ينظـرون إليها نظرة احترام، فلمـا حفـظ ابنهـا القـرآن الكـريم وفـاز بإحـدى المسابقات العالمية ونال الجوائز القيمة الثمينة، إذا بهـا قـد بلغـت إلى أوج الشهرة والكمـال، ووصـلت إلى قمـة المجـد والكرامـة، ولـيس

---

[1] إسناده حسن.

ذلك في الدنيا فقط، بل إن هذا الحافظ يقرأ القرآن الكريم، ويشفع عدداً كبيراً من أسرته وقبيلته، ويوضع التاج على والديه، ويقول الله له يوم القيامة: اقرأ وارق، كما كنت تقرأ في الدنيا، فإن منزلتك ترتفع حتى آخر آية من كتاب الله تعالى[1].

إن رقي الإنسان وازدهاره منوط في الدنيا والآخرة بالكسب والعمل، فإذا سعى رجل سعياً متواصلاً، وبذل له نفسه ونفيسه، وسهر عليه الليل والنهار وجد ضالَّته، ونال بغيته، وكلما كان سعيه حثيثاً مخلصاً كان نجاحه المطلوب أكيداً، ولا فرق في ذلك بين سعي وسعي، والسعي يفلح، لكن الجزاء يكون من جنس العمل، هذا ما أشار إليه القرآن بعد ما أكده في صحيفة سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى عليهما السلام: "وَأَن لَّيْسَ لِلإنسان إِلاَّ مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَآءَ الأَوْفَى" [سورة النجم، الآيات: ٣٩ – ٤١]، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "كلٌ ميسر لما خُلق له". وقال الله تعالى: "وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ" [سورة الأنعام، الآية: ١٣٢].

---

[1] سنن أبي داود وسنن الترمذي والنسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه.

حسبنا الله ،ونعم الوكيل

الإسلام دين السعي والعمل، دين الثقة بالله والاعتماد عليه، دين التوكل والتجمل، دين يربط الإنسان بالله تعالى، دين لا يمنعه من اتخاذ الأسباب، بل يحث على أخذها، وكل من لا يختار الأسباب يكون خاطئًا في فهم معنى التوكل على الله تعالى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا[1].

وقد أمر الله تعالى رسولنا العظيم محمدًا صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال: "وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩].

إن التوكل على الله لم يزل شعار عباد الله الصالحين في الزمن الماضي، فالأنبياء العظام الذين كانوا على أرفع درجة من التوكل، يختارون الأسباب، ويتخذون التدابير، رغم أنهم كانوا أصفياء، وأتقياء، فهذا إبراهيم عليه السلام حينما رفع قواعد البيت أمره الله تعالى أن يعلن في الناس بالحج، وكان يعلم حقًا أن صوته لا يصل إلا إلى مكان قريب فقط، وكان الله قادرًا على أن يُلقي في قلب كل

---

[1] رواه الترمذي: ٢٣٤٥.

إنسان زيارة البيت وفريضة الحج، لكن حكمة الله تعالى اقتضت أن يعلن إبراهيم عليه السلام عن الحج، ذلك لأن الإنسان مكلَّف باستخدام الوسائل، ومأمور بالعزيمة الصادقة والإقدام على العمل، فقال تعالى: "وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ" [سورة الحج، الآيتان: ٢٧–٢٨]، وهذا يعقوب عليه السلام يرسل أبناءه إلى مصر، وكانوا في جماعة، فيختار تدبيرًا ماديًا، وحكمة ظاهرة، بحيث إذا دخلوا من باب واحد، أصيبوا بالعين أو فوجئوا بحادثة، فيقول: "يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ" [سورة يوسف، الآية: ٦٧]، وهذا يوسف عليه السلام قد راودته امرأة العزيز حتى غلقت الأبواب الحديدية وكانت مؤصدةً، حينما تقول: هيت لك، ينفلت عليه السلام إلى الأبواب، وكان من ثمرة هذا الانفلات أن الأبواب الحديدية المغلقة تنفتح بسرعة مدهشة، كأنها لم تكن مغلقة، وقد صدق من قال: السعي مني والإتمام من الله.

وقد اختار النبي محمد صلى الله عليه وسلم الأسباب والوسائل في حياته، ولم يكن مكتوف الأيدي، وينتظر النصر من الله تعالى فقط، فإن مكوثه في غار حراء، وذهابه للتجارة إلى الشام، وإبرام المواثيق، وذهابه إلى الطائف، واشتغاله بالدعوة ليل نهار، ومعاهدته مع وفود يثرب قبل هجرته، ثم مكوثه في غار ثور، وحفره الخندق، وهلم جرًا – لا ينافي التوكل على الله، ولا يضاد الثقة بالله، وحينما ظهر شيء من التواكل بحيث أُعجب

المسلمون بكثرتهم، فلم يغن عنهم شيئًا، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ثم تولوا مدبرين، ولاشك أن التوكل ضد التواكل، وقد أبدى بنو إسرائيل نفسية التواكل حينما أمرهم الله تعالى أن يدخلوا الأرض المقدسة، قالوا لموسى عليه السلام: "إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ" [سورة المائدة، الآية: ٢٤]، فلم يقتحموا الأرض، ولم يجرؤوا على الدخول فيها، بل انتظروا الفرج والنصر من الله، فحرم الله تعالى عليهم الأرض أربعين سنة "فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ" [سورة المائدة، الآية: ٢٦].

ينتظر كل إنسان في هذا العصر مشاهد بدر وحنين، ولم يستعد لها استعدادًا كاملاً، بالرغم من أن الله تعالى يرحم هذه الأمة البائسة، فينصرها على ضعف إيمانها وضآلة يقينها، فياحبذا إذا كان الإيمان قويًا، والعدة متكاملة، فهنالك يتحقق معنى التوكل على الله تعالى، قال الله عز وجل: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ" [سورة محمد، الآيتان: ٧–٨]، وقال: "وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ" [سورة الطلاق، الآية: ٣]، وجاء في السنن الكبرى للبيهقي أن عمرو بن أمية رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أرسل ناقتي، وأتوكل؟ قال: اعقلها وتوكل[1].

لا يعني هذا أن الأسباب هي الأصل، بل الواقع أن الدنيا دار

---

[1] السنن الكبرى للبيهقي، رقم الحديث: ٩٧١.

الأسباب لإنجاز الأعمال، والعمدة هي الله تعالى، الذي يقول: "إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ" [سورة الأنعام، الآية: ٩٥]، فليكن على لساننا: حسبنا الله ونعم الوكيل، كلمة قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: "إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" [سورة آل عمران، الآية: ١٧٣][1].

---

[1] صحيح البخاري.

إنه من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين

الإسلام دين العبادة والانقياد، دين الطاعة والاستسلام، دين يأمر أتباعه ببيع كل غال ورخيص في سبيل الله تعالى، دين اشترى فيه الله أنفس المؤمنين وأموالهم بأن لهم الجنة، دين تمرّ طرقه بوهاد ونجاد، فهو دين الابتلاء والامتحان، دين الثبات على الحق، والاستقامة على الصراط المستقيم، دين يعلن في كتابه قول الله تعالى: "لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ" [سورة آل عمران، الآية: ١٨٦].

والتقوى لها درجات ومراتب، فالتقوى عن الشرك، والتقوى عن البدع، والتقوى عن الشبهات، وقد سأل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبي بن كعب عن حقيقة التقوى، فقال: أما مررت يا أمير المؤمنين بطريق ذي شوك وقتاد؟ قال: بلى، قال: ماذا صنعتَ؟ قال: شمرتُ أذيالي ومررت، قال: ذلك التقوى، وقال بعض العلماء: حقيقة التقوى أن يعبد الله فلا يعصى، وأن يطاع فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى، وكذلك الصبر عبارة عن ترك الشكوى واستلذاذ البلوى، قد ذكر الله تعالى

جزاء الصابرين بقوله: "إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ" [سورة الزمر، الآية: ١٠].

ولاشك أن التقوى والصبر سلاحان قويان لدحر كل مصيبة، وإزالة كل منكر، وكلما ادلهمت المصائب، واكفهرت الخطوب، وكان الناس في حاجة إلى من ينقذهم منها، ويُمسك بأيديهم إلى شاطئ النجاة، كانت التقوى والصبر هما الأداتين المؤثرتين في مثل هذه الأوضاع، فكان صاحبهما في طمأنينة وهدوء لا يخطر بباله شيء من الهم والغم، ولا يتطرق إلى نفسه خوف ولا حزن، وكانوا كما وصفهم الله تعالى: فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وقد ذكر القرآن الكريم روائع من أصحاب التقوى والصبر:

هذا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، ولاشك أنه الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم، لكنه اجتاز في حياته عقبات كأداء، وواجه في سبيله محنًا شدادًا، لا يخرج من محنة إلا ويقع في محنة أخرى، وكل ذلك من إخوته وبني جلدته، ألقي في البئر، ثم بيع في سوق مصر، ومرّ بمرحلة عصيبة في قصر ملك مصر، ثم زج به في السجن بريئًا من كل عيب، ومكث هنا مدة، هذا كله يحتاج إلى التقوى والصبر، وقد حقق يوسف عليه السلام أسمى معانيهما، حتى تبوأ عرش مصر، ونال العزة والرفعة، فقد قال بلسانه: "إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" [سورة يوسف، الآية: ٩٠].

هذا أيوب عليه السلام، قد مرّ في حياته بابتلاءات كثيرة،

واختبارات متتالية، امتحنه الله عز وجل في أهله، وماله وولده وجسمه، لكنه صبر واحتسب، واتقى الله سبحانه من المعاصي والمنكرات، ولم يشك ولم يئن، بل رضي بما قدر له الله تعالى، وشكا إلى الله سائلاً منه العفو: "وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ" [سورة الأنبياء، الآية: ٨٣]، فاستجاب الله دعاءه، وقدر له الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

الدنيا دار مصايب ومتاعب، دار أفراح وأتراح، دار آلام وأحزان، يتعرض الإنسان فيها للأزمات والبليات، ويتصدى للحوادث والكوارث، فمن جعل التقوى والصبر جنته نحو هذه المشكلات، فاز في الدنيا والآخرة، وكان مقبولاً لدى الخاصة والعامة، وقد اجتاز أهل الإيمان بمراحل عصيبة في فترات مختلفة من الزمان، وصعب عليهم قضاء الحياة في هذه الدنيا، وقد لقوا بلاء عظيمًا، بحيث وضع منشار على رؤوسهم، وجعلت جثتهم في قطعتين، كما ورد في الحديث: والله! إن من كان قبلكم ليؤخذ الرجل فيحفر له الحفرة، فيوضع المنشار على رأسه، فيشق باثنتين ما يصرفه عن دينه أو يمشط بأمشاط الحديد، ما بين عصبه ولحمه ما يصرفه عن دينه، وليتمن الله هذ الأمر حتى يسير الراكب منكم من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تعجلون[1]، فنال هؤلاء درجة الشهادة، قال الله تعالى: "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى

---

[1] سنن البيهقي الكبرى: ١٧٤٩٨.

نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً" [سورة الأحزاب، الآية: ٢٣]، وكان سبب نجاتهم التقوى والصبر، وكذلك نال الفوز والفلاح المؤمنون الذين أحرقوا في النار، فثبتوا، واستقاموا، واحتسبوا من الله الأجر الجزيل قال الله تعالى: "قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ" [سورة البروج، الآيتان: ٤—٥].

وبهاتين الميزتين نستطيع أن نقاوم كل فتنة، ونواجه كل مصيبة، ونخوض في غمار الظروف والأوضاع، وننال النجاح في الدارين، وفقنا الله تعالى للتحلي بهما في سائر الأوضاع والظروف.

والحمد لله الذي ينعمته تتم الصالحات، وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قل اعملوا ، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

الإسلام دين الجهد والعمل، دين السعي والأمل، دين الجدّ والصرامة، دين الكدّ والمجاهدة، وليس دين البطالة والتواكل، ولا دين التقاعد والتثاقل، وقد حث الإسلام على إنجاز الأعمال بجودة وإتقان، وطلب الإحسان في كل شيئ، لأن السعي هو المطلوب، وكل سعي يكون ذا ثمار جنية، وكل جهد يأتي بنتائج مرجوة، قال الله تعالى: "وَأَن لَّيْسَ لِلإنسان إِلاَّ مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَآءَ الأَوْفَى وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى" [سورة النجم، الآيات: ٣٩ – ٤٢]، وقال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" [سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠].

كل عمل ابتُغي منه وجه الله تعالى كان مقبولاً، وكل عمل وإن كان دنيياً توخي منه غرض مادى كان صاحبه صفراليدين، يؤتى يوم القيامة بثلاثة رجال: جواد وعالم، وجريئ، لكن يُسحبون في النار على وجوههم، لماذا؟ لأن غرضهم كان تافهاً، وعملهم كان رياءً، وسعيهم كان باطلاً، فوجدوا جزاءً سيئاً لأعمالهم، وإذا كان الإخلاص سائق المرء، وكان التوفيق الإلهي حليفه كان المرء ناجحاً، وداخلاً في جنات النعيم وإن كان عمله قليلاً، وبضاعته مزجاةً، كما

أشار إلى ذلك الحديث النبوي الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم[١].

يعمل الإنسان في الدنيا عملاً، ولا يرى نتيجته جليلةً، فيستولي عليه اليأس والقنوط، وهو يعتقد أن جهده قد ذهب سُدى، وصار سعيه باطلاً، ولكن ليس الأمر كذلك، إذا كان العمل صادراً من القلب السليم، ونابعاً من الإخلاص، ظهرت نتيجته ولو بتأخير، لأن الله يعلم السرائر، ويعرف مصالح العباد والبلاد، فتارة يأتي بالنتيجة على عجل، وأخرى يكون فيها تأجيل، وقد قيل: لا يذهب العُرف بين الله والناس – وقد روي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: لو أن أحدكم يعمل في صخرة صمَّاء، ليس لها باب ولا كُوَّة لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان[٢].

وقال زهير بن أبي سلمى:

مهما تكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

الواقع أن الإنسان لن ينال رضا الله تعالى بعمله فقط، بل بتوفيق من الله تعالى، وإن كان العمل يمهّد الطريق إليه، إلا إذا

---

[١] رواه البخاري في صحيحه.

[٢] كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، رقم الحديث: ٥٢٧٤.

كانت رحمة الله تعالى قد غشيته مثل السحاب، وغطته مثل الظلال، فكان نجاحه حتماً، فليست الأعمال هي الأساس، بل إذا كان لطف الله وكرمه بالإنسان أفاض الله عليه لباس القبول، قال تعالى: "إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ" [سورة المائدة، الآية: ٢٧]، وورد في الحديث النبوي الشريف: إن الله إذا أحب عبداً دعا جبرئيل عليه السلام، فقال: إني أحب فلاناً، فأحبه، قال: فيحبه جبرئيل عليه السلام، ثم ينادي في السماء، فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض[١].

وقد كان عباد الله المخلصون يعملون أعمالاً جليلةً، لكنهم يسألون الله تعالى التوفيق والسداد، هذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يرفع قواعد بيت الله تعالى، ويسأل توفيق الله تعالى، ويقول: "رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" [سورة البقرة، الآية: ١٢٧]، وهذه امرأة عمران قد نذرت ما في بطنها، وتطلب القبول عند الله، قال الله تعالى: "إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" [سورة آل عمران، الآية: ٣٥]، وقد اشترط الله لقبول الأعمال أن تكون موافقة للشريعة الإسلامية، ومزدانة بالإخلاص، ومتصفة بالاستمرارية، فإذا وجدت هذه الشروط رجحت كفة الأعمال عند الله، وصارت مقبولةً، وإذا فُقدت طُرحت متروكةً مهجورةً، فلابد من الاعتماد على الدعاء والتقوى والإخلاص لتربية هذه العواطف في النفس.

---

[١] صحيح البخاري: ٣٠٣٧.

فلا عبرة عند الله تعالى بضخامة الأعمال، ولا بتكدس الإمكانيات، ولا قيمة عنده لكثرة الوسائل، ولا لتوافر الذرائع، بل الشيئ المطلوب عند الله أن يكون العمل مقترناً بصدق النية، وصفاء السريرة، ونابعاً من صميم القلب، وقد قال الفضيل بن عياض: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجلهم شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما[١].

فطوبى للذين يعملون لله تعالى، ولا يريدون في الدنيا جزاءً ولا شكوراً، وقد ورد في الجامع الصحيح للإمام البخاري عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: إذا أعجبك حسن عمل امرئ فقل: اعملوا، فسيرى عملكم ورسوله والمؤمنون[٢]، وفقنا الله تعالى جميعاً للإخلاص في القول والعمل.

---

[١] مدارج السالكين ج ٢ / ٩١.

[٢] صحيح البخاري: ٤٦، باب قول الله تعالى: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك.....

خير الناس من ينفع الناس

الإسلام دين الخير والسعادة، دين النفع والهداية، دين عُجنت طينته بالخيرية، ونشأت بنيته من النصيحة، دين يدعو إلى جلب المنفعة، ودفع المضرة، فلا ضرر ولا ضرار، دين يعلن بكل صراحة: أن البقاء للنافع ليس للضار، والدوام للمصلح لا للمفسد، قال الله تعالى: "وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ" [سورة فاطر، الآية: ٤٣].

بعث الأنبياء والرسل لبيان طرق الخير وجهات النصيحة، فلم يكن الخير مقصوراً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل توسَّع معناه من قول لا إله إلا الله، إلى إماطة الأذى عن الطريق، ففيه الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله وإعانة الملهوف والرحمة على البهائم وغير ذلك، وكان سيدنا آدم عليه السلام أول من دلَّ على الخير، وكشف عن معايب الشر، وقد ضرب ابناه هابيل وقابيل مثالاً للخير والشر، بحيث بسط قابيل يده إلى هابيل فقال هابيل: "لَئِن بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىَ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ" [سورة المائدة، الآية: ٢٨] وقال صلى الله عليه وسلم: ليس من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول

كفل من دمها، لأنه كان أول من سنَّ القتل[١]، وكان شعيب عليه السلام يقول لقومه وهو ينصحهم: "إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ" [سورة هود، الآية: ٨٨]، هكذا كان كل نبي ينشر الخير طوال حياته، فأحبه أهل الضمائر الحية وأبغضه أهل القلوب الميتة.

وإن نبينا ورسولنا محمداً صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس كافةً لنشر الخير، فوصل الخير إلى كل بقعة من بقاع العالم، وانتشرت الاتجاهات الصالحة في كل مكان، وكانت الدنيا قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم قد فقدت روحها وحرمت أصالتها، فأحيا صلى الله عليه وسلم في الناس عواطف الخير، وذلك بسلوكه وتعاملاته وغدواته وروحاته، وقد شهدت به أم المؤمنين السيدة خديجة الكبرى رضي الله عنها، وقد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي، وكان يرتجف فؤاده، حينما قالت: كلا، والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق[٢]، والسيرة النبوية تشهد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُصب بخزيان وندامة من مثل هذه العواطف، بل كان التوفيق حليفه في كل مرحلة من المراحل، حتى لحق بالرفيق الأعلى.

والأمة المحمدية بُعثت كما يبعث الأنبياء والرسل، فكانت وظيفتها نشر الخير، وكانت رسالتها إبلاغ الحق، أخرجت هذه

---

[١] متفق عليه: البخاري ٧٣٢١ – ١٦٧٧.

[٢] صحيح البخاري، رقم الحديث: ٣.

الأمة للناس، لنفع الناس لا للإضرار بهم، وكانت جهات نفعها ماديةً ومعنويةً، فالمادية إعانة الفقراء والمساكين، والمعنوية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا تقدمت المادية على المعنوية كما كانت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم حتى لقب بالصادق الأمين كان الإقبال إلى المعنوية كثيراً، ولا شك أن التقصير في هذا المجال لا يزال يصدر من المسلمين، فيزدادون ضعفاً ومهانةً، ويشتد الأمر خطورةً، فإذا رجحت كفة الخيرية والنفع عاد تاريخهم المجيد وخرجوا من الذل والهوان. يشهد التاريخ أن التتر جاؤوا إلى العالم الإسلامي كالوحوش الضواري، فأراقوا الدماء، وأقاموا من الرؤوس قبابًا، وأحرقوا المكتبات الإسلامية، حتى اسودَّت مياه دجلة، لكن سرعان ما انقلب الأمر، فإن هؤلاء التتر قد انهزموا أمام نفعية الإسلام، وذلك بقول الشيخ جمال الدين حينما سأله الأمير الملكي أنت أحسن أم هذا الكلب؟ (وكان حبله في يده) فأجاب الشيخ: إن مت على الإسلام فأنا أحسن، وإن متُّ على الكفر فهذا الكلب أحسن؟ هنالك وجد الإسلام سبيلاً إلى قلب الأمير، ففكر في الإسلام تفكيراً، حتى أسلم مع جميع قبائله وعشائره، وقيل: إن ألمانيا قد واجهت خسائر فادحة في الحرب العالمية الأولى، فأصيبت بهزيمة نكراء، لكنها لم تذهب من أرض الواقع، ولم تفقد معنويتها، لأنها كانت تحمل في داخلها يقظةً واندفاعاً إلى الأمام، رغم كفرها بالله تعالى، فقامت من غفوتها وأثبتت جدارتها في معترك الحياة.

وضرب القرآن الكريم مثالين من الحياة الإنسانية، وهما يركزان على هذه النقطة أن الباطل يكون لماعاً يبهر العقول، ويسحر العيون، لكن يزول رواؤه وبهاؤه في فترة قصيرة، وأن الحق يكون ثابتاً في الضمائر والقلوب، وإن كان ظاهره غير مرضي لدى بعض الناس. وهما الحديد والماء، فإن لكليهما زبداً، لكن الزبد يزول، ويبقى اللباب، قال الله تعالى: "أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ" [سورة الرعد، الآية: ١٧].

وأعظم خير ظهر على الأرض بعد الزمن الجاهلي هو القرآن الكريم، لأن الله تعالى قد جعله جامعاً لمعاني الخير، وقد كان نزوله في خير مكان وهو مكة والمدينة، وخير الرسل وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وكان هذا القرآن لخير أمة أخرجت للناس، وهي الأمة المحمدية، فمن تمسك بهذا الخير واشتغل به، ونشره بين الناس أصبح خير الناس، ووضع له القبول في الأرض، قال النبي صلى الله عليه وسلم: خيركم من تعلم القرآن وعلمه[١]، ومجرد دراسة موضوع الخير في الكتاب والسنة يكشف أن كلمة خير أفضل من السكوت، ومن الصدقة التي يتبعها الأذى[٢]، وخير

---

[١] البخاري: ٥٠٢٧.

[٢] البخاري: ٣٦٣ ومسلم: ٤٨.

الأصحاب عند الله خير لصاحبه[١]، وخير الناس من طال عمره وحسن عمله[٢]، والإنسان بعد موته يكون ذكراً، والذكر للإنسان عمر ثان، فإذا كان مفتاحاً للخير ومغلاقاً للشر وقرت محبته في قلوب الناس يدعون له، وإذا كان الأمر بالعكس ما ذكروه إلا كراهةً ونفوراً، قال ابن دُريد:

وإنما المرء حديث بعده
فكُن حديثاً حسناً لمن وعى

هذا العصر الذي كثرت فيه للباطل نزوة، وللشر صولة وجولة، واشتبه الأمر بين المحسن والمسيئ، فإن سؤال سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه يمهد لنا الطريق نحو السعادة: من خير الناس يا رسول الله صلى الله عليه وسلم! فقال: خير الناس من ينفع الناس، فكن نافعاً لهم[٣].

---

[١] سنن الترمذي: ١٩٤٥.

[٢] سنن الترمذي: ٢٣٣٠.

[٣] كنزالعمال: ٤٤١٥٤، جامع الأحاديث: مسند خالد بن الوليد ج ٤٣٠/٣٤.

إن يمسسكم قرح ، فقد مس القوم قرح مثله

الإسلام دين الجهد والجهاد، دين العدة والعتاد، دين الوسطية والاعتدال، دين السعادة وهناء البال، دين يحفه شوك وقتاد، وتأتي فيه وهاد ونجاد، دين ينعم به السعداء، ويشقى فيه الأشقياء، دين قال عنه صلى الله عليه وسلم: حُفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات – قال: "أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ" [سورة آل عمران، الآية: ١٤٢].

إن هناك نظامين لله تعالى: نظاماً ظاهراً، يراه الناس بأم أعينهم، ويمارسونه صباح مساء، ليل نهار، وهو ما يُعرف في مصطلح القرآن الكريم بسنة الله تعالى: "سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً" [سورة الأحزاب، الآية: ٣٨] ونظاماً آخر باطناً، لا يراه الناس ولا يدركون أهميته، لكنه يسير سيره الطبيعي، وهو معروف في التعبير القرآني بقدرة الله تعالى، قال الله تعالى: "فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ. وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ" [سورة القلم، الآية: ٤٤]. إن المؤمنين لا يعتمدون على النظام الظاهر، بل

يعتمدون على النظام الباطن، هذا الذي يحرِّك عزائمهم، ويشحذ إيمانهم، ويملؤهم يقيناً وإخلاصاً، وشجاعةً وإقداماً، قال الله تعالى: "وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" [سورة البقرة، الآية: ٢٢١].

إن سنة الله تعالى جارية منذ الأزل إلى الأبد، لكن قدرة الله تعالى تظهر حيناً لآخر، إيذاناً بأن الله هو المحيي والمميت، والرافع والخافض، المعز والمذل، قال الله تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" [سورة آل عمران، الآية: ٢٦]، وقد ظهرت قدرة الله تعالى حينما خرجت الناقة من الجبل زمن ثمود، وظهرت قدرة الله تعالى حينما خرج إبراهيم عليه السلام من النار سالماً معافى، وظهرت قدرة الله تعالى حينما انثل حد سكين إبراهيم عليه السلام على حلقوم إسماعيل عليه السلام، وظهرت قدرة الله تعالى حينما نجا موسى عليه السلام وقومه، وغرق فرعون مع جنوده وعساكره، وظهرت قدرة الله تعالى حينما ولد عيسى عليه السلام من غير أب، وهو يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، ويخرج الموتى بإذن الله تعالى، قال الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ" [سورة الأنعام، الآية: ٩٥].

هذا كله في زمن الأنبياء والرسل، وهناك فترة قد امحت فيها

آثار الدين الحنيف من الأرض، وانطمست تعاليمه انطماساً كلياً، وهي فترة لم يأت فيها نبي ولا رسول، وهي فترة العصر الجاهلي، أراد أبرهة الأشرم أن يهدم الكعبة المقدسة، بيت الله الحرام، ففكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ومكر مكراً، والله خير الماكرين. قال الله تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ" [سورة الفيل، الآيات: ١ – ٥].

كم أراد الأعداء الألداء أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويهدموا صرح الإسلام بأسره، لكن جهودهم باءت بالفشل، ومساعيهم لم تصل إلى الأجل، وظل الدين الإسلامي ينور الكون بإشراقاته، ويبدد الظلمات بإضاءاته، قال الله تعالى: "يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ" [سورة التوبة، الآية: ٣٢].

ولا شك أن النصر الإلهي معقود بهذا الدين، ولن تغرب شمس الإسلام – بإذن الله – كائناً ما كان في مشارق الأرض ومغاربها – بشرط أن يكون الإيمان قوياً، والعمل الصالح مخلصاً لله – قال الله تعالى: "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً" [سورة النور، الآية: ٥٥].

وقد ظهرت نماذج ذلك في زمن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه حينما قاوم المرتدين، وقال قولته البليغة: والله لو منعوني عقالاً مما كانوا يعطونه زمن النبي صلى الله عليه وسلم لجاهدتهم. وفي زمن عقبة بن نافع الذي فتح المغرب الأقصى باسم الله تعالى قائلاً: اللهم رب محمد! والله لو أعلم أن وراء البحار أرضاً يابسةً لاقتحمت بفرسي هذا الموج الهائج لأنشر دينك في أقصى بقاع الأرض، وفي زمن طارق بن زياد الذي فتح الأندلس، وخطب خطبة، مستهلها: أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو إمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، وفي زمن البطل الإسلامي الكبير السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي استرد بيت الله المقدس من أيدي المغتصبين المجرمين، وقد تجلت أمثلة ذلك أيام السلطان محمد الفاتح الذي فتح القسطنطينية، ولم يبلغ من العمر إلا ٥٦ عاماً، والذي صدق عليه أيضا قول الرسول صلى الله عليه وسلم: لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش[1].

وظهر نصر الله تعالى في كل زمان ومكان، وفي هذا العصر بالذات، فطوبى للأبطال المغاوير في تركيا الذين ضحوا بحياتهم في سبيل الله تعالى إبان الانقلاب العسكري الفاشل، وهنيئاً للقيادة الرشيدة العادلة التي وفرت أجواء الأمن والأمان لمواطنيها وسكانها، وسلام على تلك الأرواح الجريئة الباسلة التي وقفت

---

[1] مسند الإمام أحمد بن حنبل: ١٨٩٥٧.

إمـام الـدبابات والصـواريخ والقنابـل المـدمرة، ومعلـوم أن دمـاء الشـهداء لا تـذهب هـدراً، بـل تنبـت نباتـاً حسـناً، فتخضـرُّ حقـول العالم الإسلامي اخضراراً كاملاً، بنصر الله ينصر من يشاء، وهـو العزيز الرحيم، يقول الدكتور محمد إقبال: إن إقبال ليس قانطاً من تربته، فإذا سقيت أتت بحاصل كبير. قال الله تعالى: "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِن بَعْـدِ الـذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَـا عِبَـادِىَ الصَّـالِحُونَ. إِنَّ فِـى هَـذَا لَبَلاَغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ" [سورة الأنبياء، الآيتان: ١٠٥ — ١٠٦] وقـال صـلى الله عليـه وسـلم: بشِّـر هـذه الأمـة بالسـناء والرفعـة والنصرة والتمكين في الأرض، من عمل فيها عمل الآخرة للدنيا، لم يكـن لـه في الآخـرة مـن نصـيب[1]. أمـا القـروح والجـروح، والإصابات والشهادات تلو الشهادات، فقد قال الله تعالى عنها: "إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّـذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُـهَدَآءَ وَاللَّـهُ لاَ يُحِـبُّ الظَّـالِمِينَ. وَلِـيُمَحِّصَ اللَّـهُ الَّـذِينَ آمَنُـواْ وَيَمْحَـقَ الْكَـافِرِينَ" [سورة آل عمران، الآيتان: ١٤٠ — ١٤١].

---

[1] مسند الإمام أحمد بن حنبل: ج ٥/١٣٤.

الأقصى يستغيث! فهل من مجيب؟

الإسلام دين الشعائر والمشاعر، والشرائع والأحكام، دين وضع الله فيه مقدسات للتقرب إليه، فهي مبعث البركات والخيرات، ومحط الرحمات والسعادات، وهي تربط السماء بالأرض، وتقوي علاقة الروح مع الجسد، ولولاها لأظلمت الدنيا وصارت خراباً يباباً، ولم يُكلَّف المسلمون لتعظيمها وتقديم ضريبة الحب لها، بل لصيانتها وتقديم المهج والأرواح في سبيلها، قال الله تعالى: "ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ" [سورة الحج، الآية: ٣٢].

فالكعبة المقدسة من شعائر الله تعالى، وهي أول بيت وضع للناس، والمسجد الأقصى ثاني القبلتين، والمسجد النبوي هو ثالث الحرمين، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى عظمة وقدسية المقدسات الثلاث في قوله: لا تشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، المسجد الأقصى، ومسجدي هذا[1]. وقد بنيت الكعبة المقدسة أول ما بنيت، بناها سيدنا آدم عليه السلام، وورد في صحيح البخاري عن أبي ذر رضي الله عنه

---

[1] متفق عليه.

قال: قلت: يا رسول الله! أيُّ مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام، قال قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة[١]. فالأقصى أحد أكبر مساجد العالم، وكامل المنطقة المحاطة بالسور، وهو معروف بالأقصى لبعده من المسجد الحرام، كما يُعرف بالبيت المقدَّس، وبيت المقدِس.

وقد كانت منطقة المسجد الأقصى مهجورةً بعد بناء المسجد إلى زمن، حتى جاء شعب سامي من اليبوسيين، وهم الذين بنوا مدينة القدس، وذلك قبل (٣٠٠٠ – ١٥٥٠ ق م). وفي هذه الفترة هاجر إليها سيدنا إبراهيم عليه السلام، ثم كانت هذه المدينة في تولية إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ثم استولى عليها الفراعنة والعمالقة، وبعد مدة فتحها سيدنا داود عليه السلام، وخلفه سليمان عليه السلام، وأعاد بناء المسجد من جديد وبنى في جنبه قصراً، عُرف بالهيكل السليماني، ولما فرغ منه دعا ثلاث دعوات: وهي (١) أن يؤتيه الله حكماً (٢) ويؤتيه ملكاً لا ينبغي لأحد من العالمين (٣) وكل من صلَّى في هذا المسجد غفر له، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه[٢] وبعد مدة غلب عليها البابليون، فتعرضوا للمسجد الأقصى، فدمره بنو بخت نصر، وأحرق الهيكل السليماني، ونفى اليهود، لكن الملك الفارسي

---

[١] صحيح مسلم: ٥٢٠.

[٢] الترغيب والترهيب للمنذري، ٢٠٦/٢.

قورش الكبير عام ٥٣٨ ق م سمح بإعادة اليهود إلى القدس، وبنى الهيكل من جديد، واحتل الإغريق أراضي فلسطين، وخضعت للإسكندر المقدوني (عام ٣٣٢ ق م)، وبعد مدة كانت تحت حكم الإمبراطورية الرومية، وفي هذه الفترة بعث زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام، وبعد بعثة عيسى عليه السلام بمدة ٧٠ عاماً ظهر الملك الرومي تايتس، وحكم القدس، فأخرج اليهود، وعذّبهم عذاباً وكان ذلك مصداقاً لقوله تعالى: لَتُفْسِدُنَّ فِى الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ، وكان المسجد الأقصى عند النصرانيين حتى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

كان في بداية عهد النبي صلى الله عليه وسلم المسجد الأقصى قبلة المسلمين، وبعد ما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ظل يصلي ستة عشر شهراً إلى المسجد الأقصى، وكان المسجد الأقصى وجهة النبي صلى الله عليه وسلم في رحلة الإسراء والمعراج، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يريد فتح أرض الشام، فجهَّز جيشاً بإمارة أسامة بن زيد رضي الله عنه، لكن أمنيته هذه تحققت بسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد جعل أبا عبيدة بن الجراح أميراً للجيش، فحاصر القدس حتى انهزم النصارى، واشترطوا أن يأتي الخليفة إلى القدس ليستلم مفاتيحها، فخرج عمر رضي الله عنه من المدينة، ووصل القدس، واستلم مفاتيح المسجد الأقصى، وذلك في عام ١٥هـ، الموافق ٦٣٦م.

وظل المسجد عند الأمويين والعباسيين، ثم كانت الحملة الصليبية، فسلب المسجد الأقصى من أيدي المسلمين، وظلت عند الصليبين إلى ٩١ عاماً، ثم نهض لاسترداده وإنقاذه من براثن الصليبيين الفتى الغيور، القائم على حدود الله السلطان صلاح الدين الأيوبي، فحرّر المسجد الأقصى من سيطرتهم عام ٥٨٣هـ، فكان هذا المسجد تحت تولية المسلمين إلى عهد السلطان عبد الحميد من الخلافة العثمانية. ففي عهد السلطان طلب اليهود قطعةً من الأرض المقدسة، فرفض السلطان طلبهم، وجعلهم يائسين من تحقيق أمنياتهم، فبدأ النظام اليهودي ينشط ويتحرك ضد الخلافة العثمانية، حتى ألغاها وأزاحها من منصبها، وهنالك استساغ الأمر لليهود، فأقاموا دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م، وفي حرب العرب وإسرائيل عام ١٩٦٧م تمت سيطرة اليهود على المسجد الأقصى. ومن ذلك الحين يصرخ المسجد الأقصى ويستغيث، ويطلب النجدة والمساعدة، فهل من ملب؟ وهل من مجيب؟

فقضية المسجد ليست قضيةً وطنيةً ولا قوميةً، وجبهته ليست جبهةً موقتةً وطارئةً، بل هي من صميم الإسلام والإيمان، ذلك لأن للمسجد الأقصى أهميةً تاريخيةً ودينيةً وإسلاميةً، وهو للمسلمين، فإنهم يرثون سيدنا إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان عليهم السلام، وقد عمر هؤلاء الأنبياء المسجد الأقصى عمارةً ظاهرةً وباطنةً، فقام على إرثهم أبناؤهم وأخلافهم من محمد صلى الله عليه

وسلم وعمر الفاروق رضي الله عنه وصلاح الأيوبي رحمه الله، وما زالت هذه الجبهة باقيةً بعد الاحتلال الغاشم، وسيعود ذلك اليوم الذي يفرح فيه المسلمون، بنصر الله ينصر من يشاء، وهو العزيز الحكيم.

عن ميمونة قالت: قلت: يا رسول الله! أفتنا في بيت المقدس، قال: أرض المحشر والمنشر، ائتوه فصلوا فيه، فإن صلاة فيه كألف صلاة في غيره، قلت: أرأيت إن لم أستطع أن أتحمل إليه؟ قال: فتهدي له زيتًا يُسرج فيه، فمن فعل فهو كمن أتاه[1].

---

[1] رواه ابن ماجة.

المحتويات

المقدمة	٥
تقديم الكتاب	٩
كلمة حب وتقدير	١١
كلمة المؤلف	١٣
الإسلام شريعة ومنهاج	
صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة	١٧
أفحكم الجاهلية يبغون؟	٢٢
ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون	٢٦
تأبى الرماح اذا اجتمعن تكسرا	٢٩
.... ولا تكن الخامسة، فتهلك!	٣٣
ولكن كونوا ربانيين...	٣٧
وما علينا إلا البلاغ المبين	٤١
لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة	٤٥
الصلاة: من ضيعها فهو أضيع لما سواها	٤٨
خذ من أموالهم صدقة تطهرهم	٥٣
شهر رمضان الذين أنزل فيه القرآن	٥٧

الحج : العج والثج ٦٤
وتزودوا ، فإن خيرالزاد التقوى ٦٩
ملة أبيكم إبراهيم ٧٣

الإسلام دين الغلبة والانتصار

الإسلام هو الحلُّ ٧٩
بالإسلام أعزنا الله ! ٨٣
الإسلام يعلو ولا يعلى عليه ٨٧
إن الدين عند الله الإسلام ٩١
ادخلوا في السلم كافة ٩٥
اعملوا ، فكل مُيسَّر لما خُلق له ٩٩
إذا لم تستح فاصنع ما شئت ١٠٣
إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ١٠٧
ولكل وجهة هو موليِّها ، فاستبقوا الخيرات ١١٢
ولكل درجات مما عملوا... ١١٥
حسبنا الله ، ونعم الوكيل ١١٩
إنه من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ١٢٣
قل اعملوا ، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ١٢٧
خير الناس من ينفع الناس ١٣١
إن يمسسكم قرح ، فقد مس القوم قرح مثله ١٣٦
الأقصى يستغيث ! فهل من مجيب؟ ١٤١
المحتويات ١٤٦